تصحيح المرويّات في

طبقّات ود ضيّف اللّه



دراسة توثيقية تحليلية في أخبار الشيخين
محمّد الهميّم وبانقا الضرير

د. عبدالجليل عبد اللّه صالح

الكتاب	تصحيح المرويّات في «طبقّات ود ضيّف الله»
الكاتب	دكتور عبدالجليل عبد الله صالح
تاريخ النشر	الطبعة الاولى 2026
الترقيم الدولي	
التصميم	بكري خضر

الناشر
دار المصورات
للنشر والطباعة والتوزيع

الخرطوم غرب
شارع الشريف الهندي
المتفرع من شارع الحرية
ت:+249912294714
elrayah1995@gmail.com
المدير المسؤول: أسامة عوض الريح

سلسلة مطبوعات الطريقة السمانية... أم عيدان

تصحيح المرويّات في
«طبقّات ود ضيّف اللّٰه»

دراسة توثيقية تحليلية في أخبار
الشيخين محمّد الهميّم وبانقا الضرير

دكتور عبدالجليل عبد الله صالح

الإهداء

إلى روح والديَّ، رحمهما الله،

عرفانًا بالفضل، ووفاءً للعطاء،

أسأل الله أن يشملهما بواسع رحمته،

﴿رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

شكر وعرفان

أتقدّم بخالص الشكر وعظيم الامتنان إلى كل من أسهم، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، في دعم هذا العمل وإثرائه بالرأي والمشورة والتشجيع، وكان لعطائه الفكري والمعنوي أثرٌ جليّ في إنجازه وإخراجه بالصورة التي بين يدي القارئ.

ويطيب لي أن أخصّ بالشكر والتقدير الأستاذ عمر محمد الأمين (وادي شعير)، الذي ظلّ على الدوام سندًا كريمًا وداعمًا مخلصًا، بما قدّمه من آراء سديدة وتشجيع متواصل كان له بالغ الأثر في إنجاز هذا العمل، وفي غيره من الأعمال الأكاديمية والأدبية التي أنجزتها.

كما أتقدّم بجزيل الشكر والتقدير إلى الأستاذ الشيخ عبدالقادر حمدان ود الأزرق، وإلى شقيقه السماني حمدان ود الأزرق، تقديرًا لما أبدياه من دعم كريم، ولا سيّما تفضّل الأستاذ الشيخ عبدالقادر بإمدادي بعددٍ من المراجع القيّمة التي كان لها أثرٌ واضح في إثراء مادة هذا الكتاب وتعزيز محتواه العلمي.

كما أتوجّه بوافر الشكر والتقدير إلى الأخ البروفيسور فضل الله إسماعيل علي، عرفانًا بتشجيعه المستمر، وتقديرًا لما تفضّل به

من آراء علمية قيّمة وملاحظات رصينة لم يبخل بها، وكان لها أثرٌ ملموس في تجويد هذا العمل وإغنائه.

وأتقدّم بخالص الامتنان إلى الدكتور النور حمد الترابي، تقديرًا لكرم دعمه، وما تفضّل به من آراء قيّمة وملاحظات مثمرة ظلّ يكرمني بها على الدوام، وكان لها أثرٌ مقدّر في تطوير هذا العمل وغيره من الأعمال التي أنجزتها.

كما أعبّر عن عميق تقديري وامتناني لكلٍّ من الدكتور محمد بابكر السيد، والباشمهندس سامي عبداللطيف، والدكتور مهند محمد نور، والباشمهندس عبدالإله الصديق، والباشمهندس الشيخ عبدالحليم رابح، والأخ محمد القرشي علي محمد، والأخ أحمد بخيت، والأستاذ معز الطيب، والأستاذ ياسر عبدالمنعم، والشيخ حماد الشيخ بهاء الدين، لما أبدوه من دعم كريم، وتشجيع صادق، ومؤازرة علمية ومعنوية كان لها الأثر الطيب في إتمام هذا العمل. وغيره من الأعمال التي وفقت في إنجازها.

فلهؤلاء جميعًا خالص الشكر وعظيم الامتنان، سائلًا الله تعالى أن يجزيهم خير الجزاء.

الفهرس

الباب الأول
طبقّات محمّد نور ودضيّف الله

الباب الثاني
"وجمعت بين الأختين ماكفاك"

الباب الثالث
الشيخ محمّد الهميّم ود عبدالصادق

الباب الرابع
الشيخ بانقا الضرير

المقدمة

يمثّل هذا الكتاب، «تصحيح المرويّات في طبقّات ود ضيّف الله: دراسة توثيقية تحليلية في أخبار الشيخين الهميّم وبانقا الضرير»، محاولةً علميةً نقديةً لإعادة قراءة بعض الروايات الإشكالية الواردة في كتاب طبقّات ود ضيّف الله: عبر منهج تاريخي توثيقي يقوم على التحليل المقارن للمصادر. وفحص الأسانيد، وإعادة وضع الأخبار في سياقها الاجتماعي والديني الصحيح.

وينـدرج هذا العمل ضمن الجهود الحديثة لإعادة النظر في التراث السوداني الصوفي، وإخضاعه لأدوات البحث الأكاديمي المعاصر، بما يوازن بين احترام الرموز التاريخية والدينية وبين متطلبات التحقيق العلمي والموضوعية المنهجية.

يندرج كتاب الطبقّات ضمن أدب التراجم والمناقب الصوفيّةالذي يهدف إلى توثيق سير الأولياء وإبراز كراماتهم ومكانتهم الروحية داخل المجتمع.

وقد بدأت العمل في هذا المؤلَّف في عام 2022، قبل أن يتوقف مؤقتًا، ثم أُعيدت مراجعته واستئنافه بعد أربع سنوات، إثر

توافر مادة مصدرية أوسع وأكثر تنوعًا لكلا الجزأين، الأمر الذي أتاح تعميق التحليل وتوسيع دائرة المقارنة، بما يعزّز من القيمة العلمية للدراسة ويجعلها أكثر إحاطةً وشمولًا. يركّز الكتاب على واحدة من أبرز القضايا الجدلية في طبقّات ود ضيّف الله، والمتعلقة بالروايات المنسوبة إلى الشيخ محمّد الهميّم ود عبد الصادق والشيخ بانقا الضرير، وخاصة ما أُثير حول قضية الزواج المنسوب للشيخ الهميّم من ابنتي الشيخ بانقا (كلتوم وخادم الله)، وما ارتبط بذلك من خلافات مع القاضي دشين. وقد اكتسبت هذه الرواية حضورًا واسعًا في الذاكرة الشعبية وفي بعض الخطابات الدينية المتأخرة، حيث استُخدمت أحيانًا في سياقات نقدية للتجربة الصوفيّة في السودان. غير أن المؤلف ينطلق من إشكالية منهجية أساسية، مفادها أن كتاب الطبقّات ليس نصًا فقهيًا أو قانونيًا، بل هو مؤلَّف في أدب المناقب والتراجم الصوفية، يعتمد على الرواية الشفاهية والسرد الرمزي، ويعكس تصورات المجتمع السناري حول الولاية والكرامة، مما يستوجب قراءته في إطاره الثقافي لا كوثيقة حكم شرعي أو تاريخي قطعي.

ويؤكد القيمة الكبرى لطبقّات ود ضيّف الله بوصفه من أهم المصادر التاريخية التي أرّخت لعصر سلطنة الفونج (1505—1821م)، حيث وثّق الحياة الدينية والاجتماعية والثقافية،

وسجّل انتشار التصوف، ونشاط الخلاوي والمسايد، وأدوار العلماء والفقهاء والأولياء في تشكيل الوعي الديني في السودان. كما يقدم صورة واسعة عن البنية الاجتماعية والسياسية، بما في ذلك القضاء، والإدارة، والعلاقات بين السلطة الدينية والسلطة السياسية. وقد أشار عدد من الباحثين، وفي مقدمتهم الدكتور يوسف فضل، إلى أن الكتاب يمثل مرآة حية للمجتمع السوداني بلغته ومخياله الشعبي وتصوراته الروحية.

وفي هذا السياق، يولي الكتاب أهمية خاصة للخلفية الدينية والتاريخية لكلٍّ من بيت الشيخ الهميّم وبيت الشيخ بانقا، بوصفهما من البيوتات الصوفيّة والعلمية التي نشأت في بيئة الدولة السنارية، حيث تداخل العلم بالدين، والتربية الروحية بالسلطة الاجتماعية. فبيت الشيخ الهميّم ود عبد الصادق يُعد من البيوت العلمية الصوفيّة التي نشأت في مدينة أربجي، في بيئة يغلب عليها التدين والعلم الشرعي، إذ كان والده الشيخ عبد الصادق من علماء المنطقة المعروفين بالتعليم في العقيدة والتوحيد، مما جعل البيت بيئة خصبة لتكوين شخصية دينية مبكرة. وقد نشأ الشيخ الهميّم في هذا الوسط، فحفظ القرآن وتلقى العلوم الدينية، ثم ارتبط مبكرًا بالطريقة القادريّةعلى يد الشيخ تاج الدين البهاري، مما أسس لمسار روحي جمع بين العلم الشرعي والتربية الصوفية، قبل أن يتطور لاحقًا إلى

دور اجتماعي وديني واسع من خلال المسايد والخلاوي ونشر التعليم الديني.

أما بيت الشيخ بانقا الضرير، واسمه محمّد بن موسى أبو دقن، فيرتبط عضوياً بالبنية السياسية والدينية لمملكة الفونج في سنار، حيث نشأ في بيئة البلاط الملكي، في ظل علاقة وثيقة بين أسرته وسلطة الدولة. فقد كان والده الشيخ موسى أبو دقن من أهل الصلاح والعلم، بينما ارتبط من جهة الأم بأسرة لها صلة بالسلطة الفونجية، الأمر الذي أتاح له نشأة مزدوجة جمعت بين التربية الدينية في بيت علم، والتنشئة السياسية في كنف البلاط الملكي. وقد تعلّم بانقا في مدارس الديوان الملكي، وتدرّج في المناصب حتى أصبح من المقربين إلى ملوك الفونج، حيث عُرف بلقب «عكاز الملك»، أي من يعتمد عليه في الشؤون الإدارية والدينية.

غير أن هذه المكانة السياسية لم تمنعه من التحول الروحي، إذ شكّلت الطريقة القادرية، على يد الشيخ تاج الدين البهاري، نقطة تحول كبرى في حياته، حيث ترك مظاهر السلطة والرفاهية، واتجه إلى الزهد والتصوف. ومن هنا برز بوصفه أحد كبار الشيوخ في سنار، واشتهر بالكرم الواسع والخدمة الاجتماعية، حتى لُقب بـ"كريم الضيّف"، وأصبح مجلسه مركزًا

دينيًا واجتماعيًا يؤمه الفقراء والطلاب وأهل الحاجة، كما ارتبط اسمه بالضيافة وإطعام الطعام، وهو ما رسّخ حضوره في الذاكرة الشعبية والدينية.

ويحلل الكتاب هذه البيئات الدينية والاجتماعية بوصفها مفتاحًا لفهم الروايات التاريخية التي وردت في طبقّات ود ضيّف الله، إذ يوضح أن العلاقة بين الشيخين الهميّم وبانقا الضرير كانت في جوهرها علاقة صوفية تقوم على ''أخوة الطريق'' والانتماء إلى الفضاء الروحي ذاته، لا علاقة نسب أو مصاهرة كما ورد في بعض المرويّات . كما يؤكد أن التداخل بين الرمزي والواقعي في السرد الصوفي أدى إلى تشكّل روايات تحتاج إلى تفكيك تاريخي دقيق قبل اعتمادها كمادة تاريخية.

ويعتمد الكتاب في تحليله على المقارنة بين المصادر المكتوبة، والروايات الشفاهية، وشجرات الأنساب، إلى جانب الدراسات الأكاديمية الحديثة، وإفادات الأسر المعنية، ليخلص إلى وجود اضطراب في بعض الأخبار المتداولة، سواء من حيث التوقيت التاريخي أو البنية الاجتماعية أو السياق الفقهي. كما يشير إلى أن تعدد نسخ الطبقّات وضياع الأصل، وما صاحب ذلك من إضافات شفاهية لاحقة، كان له دور في تشكّل بعض الروايات المثيرة للجدل.

ويخلص الكتاب في مجمله إلى ضرورة التعامل مع طبقّات ود ضيّف الله بوصفه نصًا تاريخيًا–أدبيًا يعكس ثقافة عصره، لا بوصفه مرجعًا حكمياً أو فقهيًا، مع التأكيد على أهمية إخضاع الروايات التراثية للنقد العلمي الرصين، حفاظًا على الدقة التاريخية وصونًا للذاكرة الدينية والاجتماعية السودانية، وإعادة بناء السرد التاريخي على أسس منهجية أكثر توازنًا.

د. عبدالجليل عبدالله صالح

العقيق——الباحة

20/مايو/2026م

الباب الأول

طبقّات محمّد نور ودضيّف الله

مقدمة

يُظهر استقراء الكتابات التاريخية حول السودان، ولا سيما في سياقها الديني، أن كلاً من كتاب الطبقّات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان لمؤلفه محمّد النور بن ضيّف الله، وكتاب الإسلام في السودان للمستشرق ج. سبنسر ترمنغهام، يمثلان مصدرين أساسيين في دراسة التصوف والطرق الصوفيّةفي السودان، غير أن كلاً منهما ينتمي إلى سياق معرفي ومنهجي مغاير. فبينما يندرج كتاب الطبقّات ضمن أدب التراجم والمناقب الصوفيّة الذي يهدف إلى توثيق سير الأولياء وإبراز كراماتهم ومكانتهم الروحية داخل المجتمع. فيما يأتي عمل ترمنغهام في إطار الدراسات الاستشراقية التحليلية التي تسعى إلى توصيف البنى الدينية والاجتماعية وفق منظور خارجي ذي أدوات مفاهيمية مختلفة.

وفي هذا السياق، تبرز حادثة الشيخين محمّد الهميّم ود عبد الصادق والشيخ بانقا الضرير، كما وردت في كتاب الطبقّات، بوصفها إحدى الروايات التي اكتسبت حضورًا لافتًا في الجدل

الديني اللاحق، حيث تم استدعاؤها في الخطاب السلفي المعاصر باعتبارها مثالاً يُستند إليه في نقد الممارسات الصوفيّةفي السودان. غير أن هذا التوظيف يثير إشكاليات منهجية، تتعلق أساسًا بطبيعة النص ذاته، إذ إن كتاب الطبقّاتلا يُعدّ مصدرًا فقهيًا أو عقديًا بالمعنى الاصطلاحي، بل هو نص أدبي–تاريخي يعكس تمثلات المجتمع الصوفي للولاية والكرامة، ويعتمد في كثير من مضامينه على السرد الرمزي والشفاهي، وهو ما يستوجب قراءته ضمن أفقه الثقافي والتاريخي الخاص، لا بوصفه وثيقة معيارية للحكم العقدي.

اثار الكتاب كتاب الطبقّات للمؤرخ الصوفى محمّد ود ضيّف الله كثيرا من الجدل والنقاش بين زمرة الباحثين فى تاريخ الصوفيّةوسيرة أعلامها فى السودان ، فاحتدم الخلاف بينهم حول بعض ما حواه الكتاب من معلومات وأحاديث وأنساب ، فاتهم جماعة منهم مؤلف الطبقّاتبالتحيز ورماه آخرون بعدم الدقة فى تحري الحقائق وخاصة ما تعلق منها بسيرة رجال الطرق الصوفيّةوأنسابهم ومجريات الأحداث في حياتهم وعزوا ذلك إلى أن المؤرخ ود ضيّف الله كان يستقي معلوماته ويجمع مادة كتابه مما تواتر وشاع من أحاديث العامة ورواياتهم عن أقطاب الصوفيّةممن لا علم لهم بأصول الرواية التاريخية ، كما أنه لم يزن ما بلغه من معلومات وتراجم وأحداث بميزان العقل

والمنطق وتقبل الروايات على علاتها بغير نظر ولا تمحيص ، ومن ثم كثرت أخطاؤه وجانبه التوفيق في كثير مما اشتمل عليه كتابه (الطبقّات)[1].

ولما كان أهل مكة أدرى بشعابها كما يقولون ، فإن في مقدور أبناء القبائل التي تحدر منها أقطاب الصوفيّة الوارد ذكرهم وتاريخهم في كتاب الطبقّات أن يصححوا كثيرا من الأخطاء التي وقع فيها المؤلف إذ أن التسليم بكل ما جاء في كتاب الطبقّات بالرغم مما علق به من أخطاء ضرب من قداسة زائفة تلغي وظيفة العقل في النظر والبحث عن لباب الحقيقة ، وبإطلاعي على ما ورد في الكتاب حول سيرة بعض أرباب الطرق الصوفيّةوعلى رأسهم الشيخ بانقا الضرير والشيخ محمّد الهميّم وقاضي العدالة دشين لمست طائفة من الأغاليط والتجاوزات المستهجنة فأنا وثيق الصلة موصول النسب من جهة أبي بهؤلاء السالكين ، ولهذا لم أجد بدا من تصحيح ما جاء عنهم في كتاب الطبقّاتمجافيا للحقيقة عمدا أو سهوا[2].

1- محجوب برير محمّد نور. قبسات من الفكر والتاريخ، مطابع السودان للعملة، الخرطوم، 2001، ص 391.

2- المصدر نفسه . ص 391.

مفهوم كتب الطبقّات

تُعرَّف كتبُ الطبقّات في السياق الصوفي بأنها مصنفات تُعنى بجمع سير الصوفيّةوأقوالهم وأحوالهم، ضمن بناءٍ تراجِمي يهدف إلى حفظ الذاكرة الروحية للجماعة الصوفية. ويظهر هذا التعريف بوضوح في عمل أبو عبد الرحمن السلمي، الذي يبيّن في مقدمة طبقّات الصوفيّة أنه جمع ”سير متأخري الأولياء وأقوالهم“، في إشارة إلى أن هذا اللون من التأليف يقوم أساسًا على تدوين التجربة الصوفيّة من خلال التراجم والروايات (السلمي، طبقّاتالصوفية، تحقيق عبد الحليم محمود، القاهرة: دار الكتب الحديثة، 1960، ص 3—5).

وفي تطور لاحق، يتضح أن كتب الطبقّات لا تكتفي بجمع التراجم، بل تعتمد أيضا على مبدأ التصنيف الطبقي، أي ترتيب الصوفيّةفي طبقّاتبحسب الأسبقية الزمنية أو المقام الروحي. ويبرز هذا المعنى في مصنفات مثل حلية الأولياء وطبقّات الأصفياء لـ أبو نعيم الأصبهاني، حيث تُعرض الشخصيات ضمن تسلسل يجمع بين البعد التاريخي والروحي، بما يعكس تصورًا هرميًا للتدرج في الولاية والصلاح (الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقّات الأصفياء، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، 1988).

كما تتأكد الوظيفة الروحية والتربوية لكتب الطبقّات في مؤلفات المتأخرين، خاصة عند عبد الوهاب الشعراني في الطبقّات الكبرى، حيث لا تقتصر التراجم على السرد التاريخي، بل تتضمن عرض الكرامات والأحوال بوصفها نماذج للاقتداء، مما يجعل هذه الكتب أدوات لتشكيل الوعي الصوفي وتوجيه السلوك (الشعراني، الطبقّاتا لكبرى، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، 1997، ج1، ص 7).

أما في الدراسات الحديثة، فيُنظر إلى كتب الطبقّات بوصفها تعبيرًا عن "الوعي التاريخي الصوفي"، إذ يرى J. Spen-cer Trimingham أنها وسيلة لإعادة بناء السلسلة الروحية للتصوف، وربط الأجيال الصوفيّةبعضها ببعض في إطار يضفي الشرعية والاستمرارية على الطرق الصوفيّة (Trimingham، The Sufi Orders in Islam، Oxford: Clarendon Press، 1971، p. 23).

وبناءً على هذه الشواهد، يمكن القول إن كتب الطبقّات في التصوف تمثل نمطًا مركبًا من التأليف يجمع بين التراجم التاريخية والتصنيف الروحي، ويعتمد على الرواية والسند، بهدف حفظ التراث الصوفي، وإبراز تدرج أهله في المقامات، وتقديم نماذج عملية للاقتداء في طريق السلوك.

يشير المصطلح العربي ''طبقات'' إلى طبقّات حياة الإنسان (أو الأجيال) على مر الأزمان (1). والجنس الأدبي العربي المعروف بالطبقّاتهو نوع من قاموس السيرة الذاتية الذي يستذكر مفهوم طبقّات الأجيال. أي أن كتب ''الطبقّات'' مخصصة لذكر أفراد متميزين عاشوا في عصر ما، وغالباً ما يتم تنظيمها بترتيب زمني / زماني بحسب فترة حياة (lifespans) الأشخاص عوضاً عن التسلسل الزمني الصارم (2). و''الطبقّات''، باعتبارها سيرة جماعية، هي أيضا رواية تاريخية، ترتّب التاريخ ليس من خلال الأحداث، بل من خلال الأشخاص.

ولعل أول كتاب يتعلق بذلك الجنس الأدبي هو ''كتاب طبقّات الكبير'' لمحمّد بن سعد الزهري المشهور بابن سعد (عام 844)، الذي تتبع فيه المؤلف سيرة الرسول محمّد (صلى الله عليه وسلم) وصحابته، الأمر الذي ساعد في تحقيق صحة الأحاديث النبوية. وأسس ابن سعد في كتابه لنمط معين سار عليه لاحقا من كتبوا طبقّات عن رواة الأحاديث. وتوسعت في القرن الثالث عشر كتابات الطبقّات وشملت الكثير من الشخصيات المهمة في مختلف ضروب الحياة، خاصة بعد ظهور ''كتاب وفيات الأعيان'' للقاضي ابن خلكان (ت 1282). واستمرت قواميس السيرة الذاتية في الظهور بأشكال مختلفة على مر القرون. كان الكثير منها موضوعياً، بقدر ما ركز مؤلفوها

على مجموعة محددة للغاية، سواءً أكانوا من المحترفين (مثل الفقهاء والشعراء والحكام والنُحاة والأطباء، أو أمثالهم)، أو من سكان مختلف الأقاليم (سكان فاس وصعيد مصر وإسبانيا المسلمة والشام، وغيرهم) أو الطوائف (مثل الشيعة والمعتزلة وأعضاء طوائف صوفية معينة).

يشير المصطلح العربي ''طبقات'' إلى طبقّات حياة الإنسان (أو الأجيال) على مر الأزمان (1). والجنس الأدبي العربي المعروف بالطبقّات هو نوع من قاموس السيرة الذاتية الذي يستذكر مفهوم طبقّات الأجيال. أي أن كتب ''الطبقّات'' مخصصة لذكر أفراد متميزين عاشوا في عصر ما، وغالباً ما يتم تنظيمها بترتيب زمني / زماني بحسب فترة حياة (lifespans) الأشخاص عوضاً عن التسلسل الزمني الصارم (2). و''الطبقّات''، باعتبارها سيرة جماعية، هي أيضا رواية تاريخية، ترتّب التاريخ ليس من خلال الأحداث، بل من خلال الأشخاص.

ولعل أول كتاب يتعلق بذلك الجنس الأدبي هو ''كتاب طبقّات الكبير'' لمحمّد بن سعد الزهري المشهور بابن سعد (ت عام 844)، الذي تتبع فيه المؤلف سيرة الرسول محمّد (صلى الله عليه وسلم) وصحابته، الأمر الذي ساعد في تحقيق صحة الأحاديث النبوية. وأسس ابن سعد في كتابه لنمط معين

سار عليه لاحقا من كتبوا طبقّاتعن رواة الأحاديث. وتوسعت في القرن الثالث عشر كتابات الطبقّات وشملت الكثير من الشخصيات المهمة في مختلف ضروب الحياة، خاصة بعد ظهور "كتاب وفيات الأعيان" للقاضي ابن خلكان (ت 1282). واستمرت قواميس السيرة الذاتية في الظهور بأشكال مختلفة على مر القرون. كان الكثير منها موضوعياً، بقدر ما ركز مؤلفوها على مجموعة محددة للغاية، سواءً أكانوا من المحترفين (مثل الفقهاء والشعراء والحكام والنُحاة والأطباء، أو أمثالهم)، أو من سكان مختلف الأقاليم (سكان فاس وصعيد مصر وإسبانيا المسلمة والشام، وغيرهم) أو الطوائف (مثل الشيعة والمعتزلة وأعضاء طوائف صوفية معينة) .

أشهر كتب الطبقّات

تُعدّ كتبُ الطبقّات من أهمّ المصنّفات في التراث الإسلامي، إذ تمثّل لونًا فريدًا من الكتابة التاريخية والتراجمية يقوم على ترتيب الأعلام وفق طبقّات زمنية أو علمية أو روحية، بما يكشف عن تتابع الأجيال وانتقال المعرفة والتجربة الدينية عبر العصور. وقد إزدهر هذا الفن منذ القرون الهجرية الأولى، فظهر في ميادين متعددة؛ من أشهرها علم الحديث كما في كتاب الطبقّات الكبرى لـمحمّد بن سعد، ثم امتد ليشمل طبقّات

الفقهاء والقراء والأدباء. وفي المجال الصوفي، اكتسبت كتب الطبقّات بُعدًا خاصًا، إذ لم تقتصر على الترجمة للأعلام، بل عنيت بتوثيق الأحوال والمقامات والكرامات، كما في طبقّات الصوفيّة لأبو عبد الرحمن السلمي و»حلية الأولياء» لأبو نعيم الأصفهاني. ومن خلال هذه المصنفات، تتجلّى صورة حيّة لتطور الحياة العلمية والروحية في الإسلام، حيث تتداخل السيرة بالتاريخ، والعلم بالتجربة، في بناء سردية تراثية غنية تُبرز تنوّع المرجعيات وعمق الامتداد الحضاري.

أولًا: كتب التصوف

أبو عبد الرحمن السلمي. (1960). طبقّاتالصوفيّة (تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف). القاهرة: دار الكتب الحديثة.

أبو نعيم الأصبهاني. (1988). حلية الأولياء وطبقّات الأصفياء (تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا). بيروت: دار الكتب العلمية.

عبد الوهاب الشعراني. (1997). الطبقّات الكبرى (تحقيق: عبد القادر أحمد عطا).

ثانيًا: كتب الطبقّات في التراث الديني العام

محمّد بن سعد. (1968). الطبقّات الكبرى (تحقيق: إحسان عباس). بيروت: دار صادر.

ثالثًا: في السياق السوداني

محمّد النور بن ضيّف الله. (1970). الطبقّات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان (تحقيق: يوسف فضل حسن). الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر.

كتاب طبقّات ودضيّف الله

يُعدُّ كتاب الطبقّات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان لمؤلفه الفقيه محمّد النور ود ضيّف الله من أبرز المصادر التاريخية السودانية التي تناولت الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية في السودان خلال عصر مملكة الفونج. ويشير الدكتور يوسف فضل حسن إلى أن الكتاب، منذ صدور طبعتيه غير المحققتين عام 1930م، ثم صدور طبعته المحققة الأولى عام 1970م، قد اكتسب مكانةً مرجعيةً مهمةً في الدراسات السودانية؛ لما يتميز به من غزارةٍ في المادة العلمية، وتنوعٍ في الموضوعات، وطرافةٍ في الطرح، فضلاً عن أصالة أسلوبه وسِماته التعبيرية المميزة.

كما يُنظر إلى الكتاب بوصفه من أوائل وأهم المؤلفات العربية

السودانية التي أرّخت لعصر مملكة الفونج، إذ يُعدّ مصدرًا أساسيًا لدراسة انتشار الإسلام والثقافة العربية في السودان، بل يذهب بعض الباحثين إلى اعتباره من المصادر النادرة، وربما المصدر الأبرز، الذي اهتم بتوثيق التحولات الدينية والثقافية والاجتماعية المرتبطة بذلك العصر.

محمّد نور ودضيّف الله سيرة ذاتية

قبل الخوض في تفاصيل متون الكتاب وتحليل مضامينه، يقتضي المنهج العلمي التمهيد بالتعريف بشخصية مؤلفه، لما لذلك من أهمية في فهم السياق التاريخي والفكري الذي أُنتج فيه النص؛ إذ إن الوقوف على سيرة المؤلف وخلفيته العلمية والبيئية يسهم في إضاءة كثير من جوانب الكتاب، ويفتح أفقًا أوسع لتفسير مادته وتقويمها في إطارها الزمني والثقافي.

محمّد نور بن ضيّف الله أو محمّد نور ود ضيّف الله (1139 هجريًا – 1224 هجريًا) هو مؤرخٌ وفقيهٌ على المذهب المالكي من أهل السودان. يُعد كتاب «طبقّات ود ضيّف الله» أحد المصادر الأساسية التي يُعتمد عليها في معرفة حركة المجتمع السوداني في جميع جوانبه في فترة الفُنج .(1504 – 1821).

وُلد محمّد نور بن ضيّف الله بن محمّد بن ضيّف الله بن علي

الحلفاوي (أو كما ذُكر على مقدمة كتابه الطبقّات محمّد ود ضيّف الله بن محمّد الجعلي الفضلي) في حلفاية الملوك عام 1139 هجريًا الموافق 1726 ميلاديًا. تذكر المصادر أنَّ والده كان فقيهًا ورعًا ومتصوفًا، وله مساهماته العلمية في ذلك الوقت، فكان قد وضع حاشية لكتاب «مختصر خليل»، كما تذكر أنه «سلك طريق القوم على النهج (القادري الشاذلي) شأنه شأن الفقيه الداعية الشيخ (خوجلي عبد الرحمن)، وكان ملمًا بمسائل الفقه والتصوف ومعلمًا لهما. كما له باع في شؤون الإفتاء وقد تولى القضاء فترة من الزمن»، وتكمل أنَّ محمّد نور قد سار «على نهج والده ومشربه التصوفي، فقد عُرف كوالده قاضياً وفقيهاً ومتصوفاً، له أحكامه المشهورة في العديد من المسائل والنزاعات بين مختلف الأطراف آنذاك في مسائل الميراث والتوريث والأطيان». كان محمّد قد نبغ في الفقه، وصار حجةً في المذهب المالكي. جده هو ضيّف الله بن علي، وتذكر المصادر أنَّ جده أول من درس الفقه بجامع الحلفايا شمال الخرطوم.[3]

تذكر المصادر أنه كان قد عيّن قاضيًا في أيام الشيخ ناصر بن الأمين ودمسمار، وعزله الشيخ ناصر لخلافٍ في مسألة فقهية

3- ويكيبيديا. محمّد نور بن ضيّف الله. https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%AD%D9

مع بعض علماء عصره. كما تذكر أنَّ مشايخ قبيلة العبدلاب كانوا قد عهدوا له بالإفتاء في بعض قضايا التمليك.

كان قد وصفه أحمد بن الحاج أبو علي المعروف بكاتب الشونة عند وفاته، قائلًا «حافظ المذهب والشريعة، المحقق المحرر العالم الرباني، شيخ الإسلام، فريد العصر». كما يذكر تقريرٌ لصحيفة الراكوبة «إن (صاحب الطبقّات) هو سليل العلماء ونسل الأنقياء لم يكن له خليفة بعده بمعنى هذه الكلمة، بل قال له والده بحياته عبارة «إذا مُت صل عليَّ» أي تولَّ خلافتي. وتوارثت هذه العبارة بين (أولاد ضيّف الله)، حيث ولى (ود ضيّف الله) ابن أخيه الشيخ (الحسن بن نور الدين) خلافته، الذي كان يعمل قاضياً في محكمة الخرطوم. ومن الغريب والملفت للانتباه أن (صاحب الطبقّات) لا توجد لديه قبة خاصة به كباقي الشيوخ ليدفن بها، بل توجد قبة تتبع إلى مسجده العتيق الذي تم إنشاؤه في عهد المشير (جعفر محمّد نميري) من قبل الخيرين ومنهم الشيخ (دفع الله الصائم) حيث تم دفنه في مقبرة جوار مسجده، وكان يدفن معه عامة الناس حتى تم منع الدفن بها وتسويرها، وتضم هذه المقبرة الشيخ (محمّد نور ود ضيّف الله) وثمانية من رفاة العلماء الصالحين والفقهاء، وكان (صاحب الطبقّات) فقيهاً وحجة في المذهب المالكي، وقد وصفه صاحب كتاب (الشونة) بأنه صاحب

المذهب والشريعة، شيخ الإسلام فريد عصره.

تُوفي محمّد نور بسبب الحمى الصفراء عام 1224 هجريًا الموافق 1809 ميلاديًا، وقبره يُوجد بجوار مسجده العتيق، الذي يُعد مركزًا دينيًا وتعليميًا بالحلفايا[4].

ويذكر أن والده " ضيّف الله " كان فقيهاً ورعاً ومتصوفاً له إسهاماته العلمية آنذاك ، فقد فرغ وقتها من وضع حاشية لكتاب (مختصر خليل) وقد سلك طريق القوم علي النهج القادري الشاذلي وهو في هذا المنحى شأنه شأن الفقيه الداعية " الشيخ خوجلي عبد الرحمن " من حيث المسلك والانتماء الصوفي. ويذكر إلى جانب ذلك أنه كان ملماً بمسائل الفقه والتصوف ومعلماً لهما. كما له باع في شئون الإفتاء وقد تولّي القضاءَ فترة من الزمن ، والغالب أن " محمّد النور " صاحب كتاب (الطبقّات) قد سار على نهج والده ومشربه التوصفي ، فقد عرف كوالده قاضياً وفقيهاً ومتصوفاً ، له أحكامه المشهورة في العديد من المعضلات والنزاعات بين مختلف الأطراف آنذاك في مسائل الميراث والتوريث والأطيان، وقد شرح فيما يقال مؤلفاً لابن عطاء الله السكندري صاحب الحِكَم الذائعة الصيت، وربما كان ذلك هو كتاب (لطائف المتن) ، وهذه

4- المصدر نفسه.

الوضعية من الإدراك ليست بمستغربة وقتها ، خاصة إذا علمنا أن الغالبية العظمى من السكان بالبلاد كانت على المذهب المالكي إلا القليل منهم ممنْ آثروا اتباع المذهب الشافعي ولم يكن لكل من المذهبين " الحنبلي " و " الحنفي " من الأتباع، ما للمذهب المالكي الواسع الانتشار في جهات كل من بربر وسواكن وأربجي ، وكان المذهب "الحنفي" قد قدم إلى البلاد في ركاب الغزو التركي للسودان ومن ثم أضحى الأساس للمحاكم القضائية للأخذ به وإن لم يكن له أتباع كثر حقيقة .
وفي ذات الوقت كان لعلوم اللغة العربية كالنحو والصرف وعلوم القرآن كالتفسير والتجويد والفقه المالكي والتوحيد مجالات رحبة وواسعة في مدارس البلاد ، وقد حوى كتاب (الطبقّات) الكم الأكبر من هذه الإفادات التاريخية القيمة. حيث نقف منه على أخبار الفقيه إبراهيم البولاد الذي وفد من مصر معلماً لكتابي (خليل) و (الرسالة) في مواطن قبيلة الشايقية إلي جانب " التلمساني المغربي " ، والذي افتتح عهده بالتدريس بالبلاد معلماً للتصوف وسلوك طريق القوم وعلم الكلام وعلوم القرآن الكريم وقد كان الشيخ محمّد ود عيسي سوار الذهب ، ممن تلقَّى جملة من هذه العلوم على يده الشريفة ، كما درَّس المذهب الشافعي بمنطقة بربر ، الشيخ محمّد بن قرم ، وأيضا الفقيه العالم " محمود العركي " الذي وفد من مصر لتدريس

علم التوحيد والنحو والفقه في الرسالة ، مما يوحي بأن هذه المدارس وفتها قد جمعت ما بين اللغة والفقه والتوحيد والتصوف ، وقد لقيت " رسالة ابن أبي يزيد القيرواني " و"مختصر خليل بن إسحق " و " مقدمة السنوسية " مناخاً خصباً وأريحية في نفوس طلاب العلم وحواريه من السودانيين آنذاك .

ودضيّف الله فهو عالم شرعي، على درجة من الدراية بالعلوم الفقهية والقضاء، أهلته للنظر في شكاوى الناس، والإفتاء في بعض نزاعات الأرض وتمليكها في عهد الدولة السنارية. وقد ألف كتاب الطبقّاتاستجابة لنداء «جماعة من الأخوان»، طلبوا منه أن يؤرخ لهم «مُلك السودان»، ويذكر مناقب أوليائه الأعيان. واستجابة لذلك النداء شرع الشيخ ود ضيّف الله في جمع رواياته من الأخبار المشهورة والمتواترة على ألسنة الناس، وحجته في ذلك أن «الخبرالمتواتر عن الأصوليين من الأقسام اليقينية التي تفيد العلم بالشيء، وتنفي عنه الشك، والظن، والوهم.» واقتدى في منهجه التوثيقي بجماعة من المحدثين والفقهاء والمؤرخين، وذكر منهم: الأمام عبد الغافر الفارسي صاحب تاريخ نيسابور، والأمام جلال الدين السيوطي مؤلف حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، والحافظ ابن حجر مصنف الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، والشيخ أحمد المقري مؤلف نفح الطيب في أخبار ابن الخطيب ، ويبدو أنه

استأنس أيضا بكتاب الطبقّات الكبرى لعبد الوهاب الشعراني وطبقّاتالشافعية للأمام السُبْكي[5].

منهجه في تأليف كتاب الطبقّات

لا جدال أن الروايات التي نقلها إلينا ود ضيّف الله كانت مشهورة ومتداولة بين الناس؛ إلا أن المنهج الذي سلكه في تدوينها لا يفيد التواتر ولا اليقين؛ «لأن الخبر المتواتر الذي يفيد اليقين وينفي الشك والظن هو الذي يرويه الثقة العدل الضابط عن مثله» ، ومما لا شك فيه أن أغلب الرواة الذين نقل عنهم ود ضيّف الله لا تتوفر فيهم الشروط التي وضعها علماء الجرح والتعديل، «فكون ود ضيّف الله يسند إلى والده، أو خاله موسى ود ريَّه، أو دفع الله بن الشيخ زين العابدين، وغيرهم، لا يفيد التواتر» المتعارف عليه عن المحدثين، ولا يثبت يقيناً ولا ينفي شكاً؛ لأنه معظم روايات هؤلاء تصنف في خانة شهادات السماع المشهورة التي تحتمل الصدق كما تحتمل الكذب.

ويبدو أن ابن ضيّف الله قد سلك في هذا الشأن مسلك المؤرخين القدامى، فمحمّد بن جرير الطبري، مثلاً، عندما دون تاريخه المشهور، جمع في رواياته الغث والسمين، دون أن يعرض

5- أبوشوك، أحمد إبراهيم. «كتاب الطبقّات: يوسف فضل وود ضيّف الله والرواة في دائرة الضوء». مقال منشور على موقع سودانيل، 06 مارس 2010م.

تلك الروايات إلى معايير الجرح والتعديل، وحجته في ذلك أنها أخبار مشهورة ومتواترة، درج الناس على تداولها. فالطبري دونها حفاظاً على أمانة التدوين؛ إلا أنه لم يتدخل في تقويم متونها، أو أسانيدها، بل علق الأمر في ذمة المؤرخين الذين يأتون من بعده، ليحللوا تلك الأحداث والروايات التاريخية في ظل الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي أحاط بها، وأثرت في تكوينها وتخلقها.

ويعلق البروفيسور يوسف على هذا المنحى في التدوين بقوله: «إن كتاب طبقّات ود ضيّف الله ... لهو مرآة صادقة لحياة السودانيين الدينية والروحية والثقافية والاجتماعية، وسجل صادق لمعتقداتهم الدينية في ذلك العصر أياً كان رأينا فيها. وقد سجل المؤلف ما تواتر من تلك الأخبار واشتهر دون أن يتعرض لها بالنقد والتعليق، بل وقف من كل ذلك موقف الرواي الأمين. ولا شك أن المؤلف في أخباره عن الشعوذة والخرافة التي كانت رائجة في زمانه، وفي حديثه عن الكرامات وخوارق العادات التي أسبغها الأتباع على مشائخهم حتى ظنوهم قادرين على إبراء المرضى، وإحياء الموتى، والأخبار عن الغيب، قد أرخ لكثير مما لا يرضاه العقل ولا يقبله الدين، لكنه ترك لنا معلومات ثرة عن معتقدات السودانيين، والتي تمثل

الجذور التاريخية لكثير مما هو سائد في سودان اليوم»[6].

الطبقّات كتاب مناقب وليس كتاب فقه

تُعدّ كتب المناقب من الأنماط التأليفية المهمة في التراث الإسلامي، إذ تُعنى بإبراز فضائل الأشخاص أو الجماعات، مع التركيز على خصالهم الدينية والأخلاقية ومكانتهم العلمية أو الروحية. ويمكن تعريفها بأنها مؤلفات تُخصّص لعرض مناقب شخصية معينة –كعالم أو ولي– أو فئة محددة، من خلال سرد مآثرهم، وذكر سيرهم، وما يُنسب إليهم من كرامات ومواقف تُجسّد مثال القدوة الصالحة (ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، ص 5–7؛ البيهقي، مناقب الشافعي، ج1، ص 3). وغالبًا ما تتخذ هذه الكتب طابعًا وعظيًا وتربويًا، حيث تُساق أخبارها للاقتداء والاعتبار، لا لمجرد التوثيق التاريخي.

وتتميز كتب المناقب بعدد من الخصائص المنهجية، أبرزها التركيز على إبراز الفضائل وإغفال الجوانب النقدية أو السلبية، إضافة إلى اشتمالها على روايات الكرامات والخوارق، خاصة في السياق الصوفي. كما أنها تميل إلى الانتقائية في عرض المادة، فلا تستوعب جميع تفاصيل حياة الشخصية، بل تنتقي ما يخدم

6- أحمد إبراهيم أبوشوك. كتاب الطبقّات: يوسف فضل وود ضيّف الله والرواة في دائرة الضوء – سودانيل نشر في 06 – 03 – 2010.

غرض الإشادة والتعظيم (أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، ج1، ص 4—6). ومن هنا، فإنها تعكس جانبًا من الوعي الديني والاجتماعي، بقدر ما تعكس تصورات المجتمع عن الولاية والصلاح.

أما من حيث المقارنة بغيرها من المصنفات، فإن الفرق بين كتب المناقب وكتب التراجم يتمثل في أن الأخيرة تهدف إلى تقديم عرض شامل لحياة المترجَم له، بما في ذلك نشأته، وشيوخه، وتلاميذه، ومؤلفاته، مع قدر من التوثيق والتحقيق، كما في كتاب سير أعلام النبلاء لـ الذهبي (ج1، ص 10—12)، بينما تقتصر كتب المناقب على إبراز الجوانب الإيجابية والفضائل دون استقصاء شامل. كذلك تختلف عن كتب الطبقّات التي ترتب الأعلام بحسب الأجيال أو الفئات العلمية، مع اهتمام واضح بالسياق الزمني والتاريخي، في حين لا تلتزم كتب المناقب بهذا الترتيب، بل قد تدور حول شخصية واحدة أو موضوع محدد (السيوطي، طبقّاتالحفاظ، ص 5).

ومن جهة أخرى، تختلف كتب المناقب عن كتب التاريخ التي تُعنى بتسجيل الأحداث وتحليلها ضمن تسلسل زمني دقيق، كما في تاريخ الرسل والملوك لـ الطبري (ج1، ص 7—9)، إذ إن كتب المناقب لا تستهدف التأريخ بقدر ما تهدف إلى ترسيخ

القيم الدينية والرمزية. كما أنها تفترق عن كتب الحديث التي تقوم على منهج نقدي صارم في تمحيص الروايات من خلال الإسناد، بينما تستاهل كتب المناقب نسبيًا في إيراد الأخبار، خاصة ما يتعلق بالكرامات (ابن الصلاح، علوم الحديث، ص98).

وعلى الرغم مما قد يُؤخذ على كتب المناقب من مبالغة أو ضعف في النقد، فإنها تظل مصدرًا مهمًا لفهم البنية الثقافية والدينية للمجتمعات الإسلامية، إذ تكشف عن أنماط التدين الشعبي، وتمثلات الولاية والصلاح، كما تُسهم في دراسة التاريخ الاجتماعي والفكري، خاصة في البيئات التي يختلط فيها الديني بالشعبي، كما هو الحال في عدد من المصنفات الصوفية، ومنها كتاب طبقّات ود ضيّف الله الذي يجمع بين خصائص الطبقّات والمناقب في آنٍ واحد.

يُلاحظ أن الكرامات الواردة في طبقّات ود ضيّف الله لم تُنسب إلى المشايخ على سبيل التصريح المباشر أو الرواية الذاتية، إذ لم تَرِد —في الغالب— على ألسنتهم، بل جاءت منقولة عبر روايات تداولها العامة، سواء من المريدين أو غيرهم. ويعكس هذا النمط طبيعة النقل الشفهي الذي اضطلع به المؤلف بوصفه ناقلًا (transmitter) للمرويات المتداولة في بيئته، أكثر من كونه

شاهدًا مباشرًا عليها. ومن جهة أخرى، فإن إحجام المشايخ أنفسهم عن الحديث عن الكرامات المنسوبة إليهم ينسجم مع تقليد راسخ في الأدبيات الصوفية، يقوم على كتمان الكرامة وتجنب إظهارها طلبًا للإخلاص ودرءًا للرياء.

كما أن انتشار مثل هذه الروايات المرتبطة بخوارق العادات لا يُعدّ ظاهرة خاصة بالمجتمع الذي وثّقه ود ضيّف الله، بل هو جزء من ثقافة شفوية أوسع عرفتها مجتمعات إسلامية متعددة، حيث تتداول الجماعات الشعبية أخبار الأولياء وكراماتهم بوصفها تعبيرًا عن التصورات الدينية والرمزية السائدة. ومن ثمّ، فإن التعامل مع هذه الروايات يقتضي قراءتها في سياقها الثقافي والاجتماعي، مع التمييز بين بعدها السردي الشعبي وبين المعطيات التاريخية التي يمكن استنباطها منها.

وعليه فإن كتاب الطبقّاتلمحمّد نور ودضيّف الله من كتب المناقب وقد بين المولف – ودضيّف الله- أن سبب تأليفه لذلك دعوة من بعض زملائه الذين طلبوا منه أن يؤرخ لهم ملك السودان وأن يذكر مناقب أوليائها الأعيان.

فهو لا يندرج ضمن المصنفات الفقهية أو العقدية ذات الطابع التأصيلي، وإنما هو عملٌ تاريخيٌّ/مناقبي يُعنى بسير الأولياء والعلماء، ويعكس أنماط التدين الشعبي والتصورات

الصوفيّةالسائدة في المجتمع، أكثر من عنايته ببناء الأحكام أو تقرير مسائل الاعتقاد وفق منهج علمي منضبط. فهو كتاب لا يُحتج به في مسائل الفقه أو العقيدة، وعليه يجب أن لا يُقرأ باعتباره مرجعًا تشريعيًا.

ويذهب الدكتور غازي صلاح الدين العتباني إلى أن كتاب طبقّات ود ضيّف الله لا ينبغي التعامل معه بوصفه مصدرًا للأحكام الشرعية، وإنما باعتباره نصًا يعكس رؤىً وتجليات لواقعٍ اجتماعي وديني وثقافي في حقبة تاريخية محددة، وهو ما عبّر عنه في سياق حديثه بقوله: «قبل الاستطراد في تأويل هذه القصة أود أن أذكر بأنني اشترطت أن يقرأ كتاب ود ضيّف الله ليس باعتبار أن ما ورد فيه صحيح أو غير صحيح، أو أنه كتاب تعرف منه أحكام الدين، وإنما باعتبار أنه رؤيا وراء واقعية، وكتاب تتفحص من خلاله تكوين البنية النفسية والعقلية في السودان الأوسط في القرون الخمسة الماضية»[7]

7- غازي صلاح الدين العتباني. صورة الزعيم الخارق ونفوذها على الحياة العامة السودانية
قراءة سريالية لعالم ود ضيّف الله. دراسة منشورة على موقع تأسيس، على الرابط
https://www.tasees.org/wp-content/uploads/2023/08/%D8%B5%D9%88%D8%B1%D8%A9.pdf
المصدر نفسه.

مصادر الكتاب

إنّ المصادر التي اعتمد عليها المؤلف محمّد نور ود ضيّف الله تنحصر أساسًا في مصدرين رئيسيين، أولهما الروايات الشفاهية التي تلقّاها من أفواه العامة والمريدين وما كان متداولًا بينهم من أخبار وكرامات، وثانيهما ما نُقل إليه من أقوال الشيوخ والفقهاء وأهل الطريق، حيث شكّل هذان المصدران العمود الفقري لمادته، ومن خلالهما صاغ كتابه في صورة تجمع بين التوثيق التاريخي والسرد الروحي الشعبي. وباختصار يمكن اجمالهما في:

الروايات الشفويّة والمصادر الخطية.

الأخبار المتواترة والشهيرة.

سجل المؤلف ما تواتر من تلك الأخبار واشتهر دون أن يتعرض لها بالنقد والتعليق بل وقف من كل ذلك موقف الرواي الأمين كما ذكر دكتور يوسف فضل، لم يكن ود ضيّف الله رغم ثقافته الواسعة مؤرخا بالمعنى المتعارف عليه اليوم: يلتزم الدقة والموضوعية في اختيار مادته ثم يعقب على ذلك بشيء من النقد والتحليل. فقد كتب ود ضيّف الله في خطبة الكتاب:(وبعد فقد سألني جماعة من الأخوان، أفاض الله علينا وعليهم سحايب الإحسان

وأسكننا وأياهم أعلى فراديس الجنان بحرمة سيد ولد عدنان، أن اؤرخ لهم مُلك السودان، وأذكر مناقب أوليائها الأعيان. فاجبت سؤالهم بعد الاستخارة الواردة في السنة والإلهام، ولم يكن لأسلافنا وأسلافهم وضع في هذا الشأن. إلا أن أخبارهم متلوة عند الخاص والعام، منها ما بلغ حد التواتر عندهم. فأحببت أن أذكر ما اشتهر وتواتر من الأخبار. وذلك لأن الخبر المتواتر عند الأصوليين من الأقسام اليقينية التي تفيد العلم بالشيء وتنفي عنه الشك والظن والوهم.

فافتديت بجماعة من المحدّثين والفقهاء والمؤرخين أنهم ألفوا في التاريخ والمناقب[8].

وكتب دكتور يوسف فضل محقق كتاب الطبقّات عن مصادر الكتاب بقوله: «أما مصادر الكتاب فيمكن تقسيمها إلى قسمين رئيسيين هما الروايات الشفوية والمصادر الخطية. ويدلنا البناء العام لكتاب الطبقّات أن ود ضيّف الله قد اعتمد اعتمادا كبيرا على الروايات الشفوية المتواترة بين الناس عن الأعلام من العلماء والأولياء. ولا غرابة في ذلك فإن ندرة المؤلفات المحلية كانت تحتم على المؤلف أن يتكئ على ما يتناقله الناس

8- عمر محمّد الأمين. وقفةٌ مع بعض المرويّات الشفويّة والسماعيات والحكايات المُؤَسِسة للشخصية السودانية في كتاب الطبقّات. منشور على الرابط https://sudanile.com/%D9%88%D9%82%D9%81%D8%A9

جيلا بعد جيل، وكأني به قد أحس أن هذه الطريقة قد تعرض المضمون لشيء من التحريف. فيبدد المؤلف هذا التساؤل بقوله:» إن أخبار هؤلاء الأعلام متلوة عند الخاص والعام ولذا اختار منها ما اشتهر وتواتر وذلك لأن الخبر المتواتر عند الأصوليين من الاقسام اليقينية التي تفيد العمل بالشيء وتنفي عنه الشك والظن والوهم»

وكثيرا ما يسند المؤلف أخبارا على مصدر معين كوالده أو خاله موسى ود ريّة أو دفع الله بن الشيخ زين العابدين وغيرهم. وإذا تشكك في رواية بدأها بكلمة «قيل».

وتعكس مادة الطبقّات أن ود ضيّف الله رغم ثقافته الواسعة لم يكن مؤرخا بالمعنى المتعارف عليه اليوم: يلتزم الدقة والموضوعية في اختيار مادته ثم يعقب على ذلك بشئ من النقد والتحليل..».

وفي سياق الحديث عن مصادر كتاب طبقّاتود ضيّف الله، وما غلب عليها من اعتمادٍ واسع على الرواية الشفاهية، تجدر الإشارة إلى أن النقل الشفاهي ظلّ يمثل وعاءً أساسيًا لحفظ الحكمة والمعرفة وتداول الأخبار في التراث السوداني، غير أنه – بحكم طبيعته – يبقى عرضة لتحولات الذاكرة البشرية وتفاوت الروايات وتداخل الإضافات والتأويلات عبر الزمن. ومن ثمّ، فإن الانتقال من الشفاهة إلى التدوين المكتوب يفرض ضرورة

إخضاع هذه المرويّات للفحص والتدقيق المنهجي، حفاظًا على الدقة التاريخية وصونًا للقيمة الثقافية للمجتمع. وفي هذا السياق، يلفت الصحفي زهير عثمان حمد الانتباه إلى طبيعة طبقّات ود ضيّف الله بوصفه نصًا تشكّل في فضاء الرواية الشعبية والذاكرة الجمعية، قائلاً :»في رحاب التاريخ السوداني، يقول أساتذتي الكرام (يقف النقل الشفاهي كشاهد على تداول الحكمة والمعرفة، لكنه في ذات الوقت يُعاني من ضبابية الذاكرة وتقلبات الرواية، مما يُلقي بظلال من الشك على دقة ما يُنقل ويُكتب، ويُحتم علينا مهمة التحقق والتدقيق للحفاظ على صدق التراث الثقافي السوداني. هذه المقولة تُبرز الحاجة إلى التوثيق الدقيق والمنهجي للمعلومات والقصص التي تُنقل شفاهيًا، خاصةً في مراحل الانتقال من الثقافة الشفاهية إلى الثقافة المكتوبة، لضمان الحفاظ على القيمة الثقافية والتاريخية للمجتمع السوداني»[9] .

وكتب الدكتور يوسف فضل في مقدمة الطبعة الثانية:» وأود أن أؤكد أن كتاب طبقّات ود ضيّف الله الذي يؤرخ لطبقة الأولياء والصالحين والفقهاء في عصر الفونج لهو مرآة صادقة

9- زهير عثمان حمد. كتاب طبقات ود ضيّف الله- بين التراث الشفاهي ومعايير النقد الحديث. مقال منشور على موقع صحيفة سودانيل https:// sudanile.com/%D9%83%D8%AA%D8%A7%D8%A

لحياة السودانيين الدينية والروحية والثقافية والاجتماعية وسجل صادق لمعتقداتهم الدينية في ذلك العصر أيا كان رأينا فيها. وقد سجل المؤلف ما تواتر من تلك الأخبار واشتهر دون أن يتعرض لها بالنقد والتعليق بل وقف من كل ذلك موقف الرواي الأمين .....، ولكنه ترك لنا معلومات ثرة عن معتقدات السودانيين والتي تمثل الجذور التاريخية لكثير مما هو سائد في سودان اليوم. وكل هذه سمات هامة من سمات ذلك العصر لا يمكن تجاهلها أو التقليل من قيمتها»[10].

وكتب الشاطر البصيلي في هامش صفحة 53 وتعريفاً بكتاب الطبقّات:» وهذا الكتاب جدير بالدراسة الخاصة في مختلف نواحي الموضوع وفي مقدمتها تحقيق ما جاء في الكتاب وتنقيته مما يكون مضافا اليه لغرض ما.»

تعني هذه الإشارات أنه ينبغي على المؤرخين والباحثين تناول ما ورد في الكتاب وفق معايير التحقيق والضبط والتدقيق والموضوعية والتحليل والتعليق قبل اعتماد ما ورد كحقائقٍ تامة سديدة ومأمونة، وعليهم التعامل مع المرويّات كنصوصٍ وصيغٍ للعرض والتحقيق وليس كحقائق معتمدة وموثوقة.

10- عمر محمّد الأمين. وقفةٌ مع بعض المرويّات الشفويّة والسماعيات والحكايات المُؤَسِسة للشخصية السودانية في كتاب الطبقّات، مصدر سابق.

لكن الواقع يقول خلاف ذلك؛ فقد أصبحت مرويّات ود ضيّف الله في تلك التراجم حقائق تاريخية معتمدة حرية بالثقة ينقلها المؤرخون والباحثون باحث عن باحث ومؤرخ عن مؤرخ دون التوقف عندها وإخضاعها للتحقيق والتثبت عن مدى صحتها ومصداقيتها.

سنعرض ثلاثة نماذج توضح ذلك، وكيف أصبح ما جاء فيها يرد كحقائق تاريخية في متون كتب التاريخ والدراسات الاجتماعية والثقافية لعصر الفونج وتستخدم دعم وتعضيد وجهات النظر في وصف وتحليل الحياة الدينية والروحية والثقافية والاجتماعية والفكرية في الدولة السنارية.

دواعي تأليف كتاب الطبقّات

وفيما يتصل بدواعي تأليف هذا الكتاب، يوضح مؤلفه محمّد نور ود ضيّف الله مقاصده من تصنيفه، مبيّنًا الأسباب التي دفعته إلى جمع مادته وتدوينها في هذا العمل، فيقول أنه ألف الكتاب استجابة لنداء «جماعة من الأخوان»، طلبوا منه أن يؤرخ لهم «مُلك السودان»، ويذكر مناقب أوليائه الأعيان. واستجابة لذلك النداء شرع الشيخ ود ضيّف الله في جمع رواياته من الأخبار المشهورة والمتواترة على ألسنة الناس، وحجته في ذلك أن «الخبر المتواتر عن الأصوليين من الأقسام اليقينية

التي تفيد العلم بالشيء، وتنفي عنه الشك، والظن، والوهم.» واقتدى في منهجه التوثيقي بجماعة من المحدثين والفقهاء والمؤرخين، وذكر منهم: الإمام عبد الغافر الفارسي صاحب تاريخ نيسابور، والإمام جلال الدين السيوطي مؤلف حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، والحافظ ابن حجر مصنف الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، والشيخ أحمد المقري مؤلف نفح الطيب في أخبار ابن الخطيب ، ويبدو أنه استأنس أيضا بكتاب الطبقّات الكبرى لعبد الوهاب الشعراني وطبقّات الشافعية للإمام السُبْكي.

لا جدال أن الروايات التي نقلها إلينا ود ضيّف الله كانت مشهورة ومتداولة بين الناس؛ إلا أن المنهج الذي سلكه في تدوينها لا يفيد التواتر ولا اليقين؛ «لأن الخبر المتواتر الذي يفيد اليقين وينفي الشك والظن هو الذي يرويه الثقة العدل الضابط عن مثله» ، ومما لا شك فيه أن أغلب الرواة الذين نقل عنهم ود ضيّف الله لا تتوفر فيهم الشروط التي وضعها علماء الجرح والتعديل، «فكون ود ضيّف الله يسند إلى والده، أو خاله موسى ود ريَّه، أو دفع الله بن الشيخ زين العابدين، وغيرهم، لا يفيد التواتر» المتعارف عليه عن المحدثين، ولا يثبت يقيناً ولا ينفي شكاً؛ لأنه معظم روايات هؤلاء تصنف في خانة شهادات السماع المشهورة التي تحتمل الصدق كما تحتمل الكذب.

ويبدو أن ابن ضيّف الله قد سلك في هذا الشأن مسلك المؤرخين القدامى، فمحمّد بن جرير الطبري، مثلاً، عندما دون تاريخه المشهور، جمع في رواياته الغث والسمين، دون أن يعرض تلك الروايات إلى معايير الجرح والتعديل، وحجته في ذلك أنها أخبار مشهورة ومتواترة، درج الناس على تداولها. فالطبري دونها حفاظاً على أمانة التدوين؛ إلا أنه لم يتدخل في تقويم متونها، أو أسانيدها، بل علق الأمر في ذمة المؤرخين الذين يأتون من بعده، ليحللوا تلك الأحداث والروايات التاريخية في ظل الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي أحاط بها، وأثرت في تكوينها وتخلقها[11].

يمثّل هذا الكتاب دراسةً تاريخيةً معاصرةً تتوخّى إعادة قراءة عددٍ من القضايا الإشكالية في التراث الديني السوداني قراءةً نقديةً تصحيحيةً تستند إلى منهجٍ تحليلي رصين. ويحمل الكتاب عنوان: «تصحيح المرويّات في «طبقّات ود ضيّف الله»: دراسة توثيقية تحليلية في أخبار الشيخين الهميّم وبانقا الضرير»، حيث يركّز على واحدةٍ من أبرز القضايا التي أوردها المؤلف محمّد نور ود ضيّف الله في كتابه الموسوم «كتاب الطبقّات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان»، وهي الرواية

11- أحمد إبراهيم أبوشوك. كتاب الطبقّات: يوسف فضل وود ضيّف الله والرواة في دائرة الضوء. مصدر سابق.

المتداولة حول الشيخين محمّد الهميّم بن عبد الصادق والشيخ بانقا الضرير.

وتتمحور هذه الرواية –على وجه الخصوص– حول مسألة الزواج المنسوب إلى الشيخ محمّد الهميّم، إذ تفيد الرواية الشائعة بأنه جمع بين الأختين كلتوم وخادم الله، ابنتي الشيخ بانقا، وهو ما يثير إشكالات تاريخية وفقهية واجتماعية تستدعي التمحيص والمراجعة. ومن هنا، يسعى هذا الكتاب إلى تناول هذه الرواية بمنهجٍ تاريخي نقدي تصحيحي، يقوم على فحص الأسانيد، وتمحيص الروايات، ومقارنتها بمصادر أخرى موازية، إلى جانب تحليل السياقات الاجتماعية والثقافية التي أسهمت في تشكّل هذه الرواية وانتشارها داخل الذاكرة الشعبية.

وينطلق هذا العمل من هدفٍ رئيس يتمثل في تصحيح هذه المروية، لا سيما فيما يتعلق بنسبة الابنتين إلى الشيخ بانقا الضرير، وقضية زواجهما من الشيخ الهميّم، وذلك في ضوء مراجعة دقيقة للمصادر التاريخية. ولتحقيق هذه الغاية، اعتمدت الدراسة على طيفٍ واسع من المصادر، شمل كتبًا ومخطوطاتٍ تاريخية، ومقالاتٍ علمية، ومقابلاتٍ مع باحثين ومتخصصين في تاريخ السودان، فضلًا عن مروياتٍ ووثائق صادرة عن البيوتات المعنية نفسها، ولا سيما ما ورد في مؤلفات

أسرة اليعقوباب، بما تمثّله من أهمية في حفظ الذاكرة المحلية وتوثيق الروايات المتوارثة.

وعليه، فإن هذا الكتاب لا يهدف إلى مجرد عرض الرواية أو إعادة سردها، بل يتجاوز ذلك إلى تفكيكها ونقدها وإعادة بنائها على أسسٍ علمية، سعيًا إلى تصحيح ما ورد في الطبقّات، وإسهامًا في إعادة كتابة جانبٍ من تاريخ التصوف في السودان وفق منهجٍ يقوم على التحقيق والتوثيق والتحليل التاريخي الدقيق.

أهمية كتاب الطبقّات

ويعتبر الكثير من العلماء أن كتاب ''طبقّاتود ضيّف الله''، هو أحد المصادر المهمة لدراسة شمال وسط السودان الشمالي في عصر دولة الفونج (حوالي عام 1599 – 1820م). وتواصل نشر كتب الطبقّات في الازدهار بالسودان حتى اليوم. ونُشِرَت في غضون السنوات الخمس الماضية (أي بين عامي 1990 و1995م. المترجم) ما لا يقل عن ثلاثة قواميس للسير الذاتية لشخصيات سودانية (أخذت شكل ''الطبقّات''). ولكن من اللافت للنظر أنه على الرغم من أهمية وحيوية ذلك النوع من الكتابة الأدبية والتاريخية، إلا أنه ظل غير معروف أو لا يستخدم على نطاق واسع في أوساط مؤرخي حقبة القرن العشرين بالسودان

(3). وهناك عاملان يساعدان في تفسير غموض هذا النوع من الكتابات؛ أحدهما هو عامل عدم إمكانية الوصول اليها ابتداءً. فقد تمت طباعة غالب قواميس السيرة الذاتية السودانية في القرن العشرين، بصورة رديئة (وبتكلفة زهيدة) أو بكميات صغيرة. وقد أشار الكثيرون إلى غياب مجموعات الكتب العربية من مكتبات الأبحاث في أوروبا وأمريكا الشمالية، وربما تكون بعض تلك الكتب قد غابت أيضا عن المكتبات السودانية الرئيسية. وقد أشار ريتشارد هِلْ إلى هذه المشكلة عندما قال: " تُولَدُ عشرات الكتب الصغيرة (في السودان) دون ذكر لطابَع/ لطَبعَة imprint، وبلا تاريخ، وحتى بدون صفحة عنوان أحياناً. وهي كتب تُتَدَاوَلُ لموسم قصير وتموت دون أن تترك أي أثر". أما العامل الثاني فهو عامل عدم وعي الجُمهُور؛ أي أن المؤرخين (السودانيين وغير السودانيين خاصةً)، أخفقوا في إدراك الإمكانات الكامنة في قواميس السيرة الذاتية هذه باعتبارها من المصادر المهمة عن الشخصيات السياسية والثقافية الرائدة في شمال السودان، ولا سيما إبان الفترة الكولونيالية (الحكم الثنائي الإنجليزي – المصري) بين عامي 1898 و1956م. وعوضاً عن ذلك، صار قراء تلك الأعمال هم فقط زملاء المؤلفين وأصدقائهم من ناحية، والمراقبين السودانيين للمشهد الثقافي والسياسي بالبلاد من ناحية أخرى.

و كتاب الطبقّات ا لمعروف شعبيا بـ (طبقّات ود ضيّف الله) من أشهر الكتب السودانية، ويعد من أمهات كتب التراث السوداني، والمرجع الأول المطبوع لدارسي التصوف في السودان.

والكتاب غاية في الأهمية لعدة مناحٍ يأتي في مقدمتها أنّه من المصادر الأولية الهامة في تاريخ سلطنة الفونج (1505 – 1821م)، إذ ورد بين ثناياه العديد من الإشارات التي تبين حياة التصوف والسلوك الاجتماعي في الدولة ومكانة الأولياء والمتصوفة في الحياة الاجتماعية والسياسية، مع الإشارة إلى نظمهم التربوية من حلقات للعلم والذكر وخلاوى للفقه والقرآن، وهو يتناول فترة من أخصب فترات التاريخ بالسودان حيث وضعت الأسس المبكرة الأولى للإسلام ونفوذه الدعوى والثقافي في البلاد.

وموضع الأهمية أيضا في هذا السفر القيم أنه قد جاء ترجمة للمتصوفة والعلماء وقراء القرآن والبعض من الشعراء والأدباء، والذين تراوح عددهم عند البعض من المحققين ما بين (270) علماً (يوسف فضل حسن) وما بين (259) عند (ماكمايكل) علاوة على ما تضمنه من الإشارات إلى السلاطين والوزراء والولاة بالولايات المختلفة والإفادات القيمة عن النظم الإدارية والاجتماعية والسياسية والدينية، إلى جانب العادات والتقاليد

والأعراف بين طوائف المجتمع السناري[12].

وهو من المصادر الأولية الهامة في تاريخ سلطنة الفونج (1505 – 1821م)، إذ وردت بين ثناياه العديد من الإشارات التي تبين حياة التصوف والسلوك الاجتماعي في.الدولة ومكانة الأولياء والمتصوفة في الحياة.والذكر وخلاوى .للفقه والقرآن، وهو يتناول فترة من أخصب فترات التاريخ بالسودان حيث وضعت الأسس المبكرة الأولى للإسلام ونفوذه الدعوى والثقافي في البلاد. ويترجم الكتاب للمتصوفة والعلماء وقراء القرآن والبعض من الشعراء والأدباء، والذين تراوح عددهم عند البعض من المحققين ما بين (270) علماً مثلما يقول البروفيسور يوسف فضل حسن وما بين (259) عند(ماكمايكل) علاوة على ما تضمنه من الإشارات إلي السلاطين والوزراء والولاة بالولايات المختلفة والإفادات القيمة عن النظم الإدارية والاجتماعية والسياسية والدينية، إلى جانب العادات والتقاليد والأعراف بين طوائف المجتمع السناري.

12- عمر محمّد الأمين. وقفةٌ مع بعض المرويّات الشفويّة والسماعيات والحكايات المُؤَسِسة للشخصية السودانية في كتاب الطبقّات. https://sudanile.com/%D9%81%D8%A9%D9%82%D9%88%D9%85%D8%B9-%D8%A8%D8%B9%D8%B6-%D9%%8C-%D9%85%D8%B9-%D8%A8%D8%B9%D8%B6-%D9

وهو كذلك أقدم مرجع للحياة الاجتماعية السودانية لا تتمظهر فيه الهيكلة الصوفيّة للشخصية السودانية وهو المصدر الوحيد الذي يهتم بانتشار الثقافة العربية الإسلامية في السودان وهو مرآة الحياة السودانيين الروحية والاجتماعية [13].

كتاب كان ولا يزال يكتسب من الأهمية الأكاديمية ما هو جدير بأن يجعله المحط لكل راغب في تناول الثقافة والفكر السوداني وتاريخه ، فهذا السفر قد ورد بعناوين مختلفة ومتباينة من قبيل "كتاب الطبقّات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان"، أو "كتاب طبقّات ود ضيّف الله في أولياء وصالحي وشعراء السودان"، أو كما ورد عند الغير من المهتمين بعنوان مختصر يقرأ "طبقّات ود ضيّف الله"، ربما المقصود كتاب " طبقّات ود ضيّف الله "كما اعتمد البعض الأول ليقرأ "كتاب الطبقّات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان " فإنه البوتقة لطالب المعرفة في التراث السوداني.

كما أشار صاحب مخطوطة "كاتب الشونة " إليه بعنوان " كتاب طبقّات الصالحين "، وفي الغالب الأعم فإن الكتاب

13- عبدالله الشيخ. التصوف بين الدروشة والتثوير. 2018، ص 31

لم ينته إلى الشكل النهائي عندما تركه مؤلفه فقد كان وما يزال في طور المسودة ألقابلة للزيادة والحذف والإضافة والتبديل ، والراجح أن كتاب الطبقّاتقد بقي بعد صاحبه كما هو ولم يخضع لمراجعة علي النحو الذي حدث لكتاب " تاريخ ملوك سنار " على أيدي كل من إبراهيم بن عبد الدافع والأمين الضرير والزبير ود ضوة .

وعلي كل فلأهمية كتاب الطبقّات فقد اهتم عدد من الباحثين به وبمحتواه فالبعض منهم قد عرفه به بينما نوه إليه البعض الآخر وذهب فريق آخر إلى اتخاذه مدخلاً لمعرفة أصول التصوف في عصر الفونج ، وصب آخرون جلّ اهتمامهم على التراجم اختصاراً أو تنقيحاً بينما حظي عند البعض بالترجمة إلى اللغة الإنجليزية ، أما تحقيقه تحقيقاً علمياً فقد كان آخر المحاولات البحثية الجادة.

يرى الباحث الأستاذ تاج السر عثمان أن محمّد نور ود ضيّف الله، في تدوينه للواقع الذي عرضه في مؤلفه الطبقّات، قد عبّر عن خصوصية التجربة السودانية، مميّزًا إياها عن النماذج السابقة في كتب الطبقّات، مثل طبقّات الشعراني والطبقّات الكبرى. ويذهب عثمان إلى أن ود ضيّف الله يُعدّ ثمرة مباشرة للنظام التعليمي الذي أسّسه المتصوفة أنفسهم في مستهل حقبة

الفونج. وفي هذا السياق، يقرر عثمان قائلاً: «نأخذ على سبيل المثال أن ود ضيّف الله عندما كتب الطبقّات أستفاد من كتابة التاريخ على نحو الذي كان سائداً في العالم الإسلامي من ناحية الشكل مثل : الطبقّات الكبرى ، طبقّات الشعراني في الأولياء والصالحين، ولكن ود ضيّف الله عندما كتب الطبقّاتأخذ خصوصية السودان في الاعتبار. ولم يكرر ما هو معروف ومشار إليه في طبقّات الشعراني مثلاً أو الطبقّات الكبرى ، ولكنه أشار إلى طبقّاتأو تاريخ الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان وبالتالي جاء المؤلف بتلك الخصوصية السودانية التي قدم فيها معرفة جليلة وقيمة بالتاريخ السوداني الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والفني والأدبي والعلمي والديني ، بل حتى استخدم اللهجة. اللهجة السودانية التي كانت سائدة.

فود ضيّف الله كان محلياً ، ولكنه هذه المحلية هي التي اضفت على هذا الكتاب أن يكون مصدراً هاماً من مصادر هاما من مصادر دراسة التاريخ السوداني في تلك الفترة. ود ضيّف الله إذن هو نتاج ذلك التعليم الذي ابتدعه أهل الفونج والذي جاء أصيلا وتابعاً من احتياجات الواقع السوداني»[14].

14- تاج السر عثمان. كتاب لمحات من تاريخ مملكة الفونج الاجتماعي. الخرطوم – الطبعة الثالثة 2025.

يكتب الباحث الأستاذ محمّد جمال الدين أن كتاب الطبقّاتكانت يمثل اشارقة تاريخية موجهة للشعب مباشرة (سوق مستقل) فجعل ود ضيّف الله لأول مرة في تاريخ سودان الوسيط سلطة مستقلة للكتابة عن السلطة الرسمية!. وتلك النقطة في وجهة نظري هي سر الجدل الدائر حول الطبقّاتكل الوقت، كونها ليست صنيعة دواوين رسمية ولا وليدة معارضة لسلطة قائمة «كدا بس» وإنما هي صولجان في حد ذاتها!.

فالطبقّات مكتوبة بلغة الناس ومتحدثة عن هموم الناس وناقلة لتصوراتهم وافكارهم وأحلامهم وخيالاتهم وأوهامهم وعجزهم وآلامهم وأحزانهم وأساطيرهم القادمة من البعيد. إنه أمر غير معتاد، مع الوضع في الحسبان المحيط المعتم والمنفصم، الذي تحدثنا عنه أعلاه، أن يجي إنسان ويتحدث بلغة الناس من اجل الناس لا لغة الأجهزة الإدارية «السلاطين/الملوك/الأمراء» ذلك نادر في التاريخ!.

ولكل تلك الأسباب جاءت الطبقّات في غاية البساطة والإبداع والصدق مع الذات إلى درجة اشبه بالسذاجة وما هي كذلك!.. إنها فقط تشبه لحظتها التاريخية في أقصى الحدود الممكنة[15].

15- محمّد جمال الدين. طبقات ود ضيّف الله وعلة التوثيق وأزمة الحضارة

وفي سياق الحديث عن أهمية كتاب طبقّات ود ضيّف الله وأثره بوصفه نصًا تاريخيًا توثيقيًا مؤسسًا للكتابة السودانية، يشير الصحفي والباحث زهير عثمان حمد إلى أن الكتاب لا يُقرأ باعتباره مجرد سجل لمناقب الأولياء أو مجموعة من الحكايات المرتبطة بالتصوف الشعبي، وإنما بوصفه وثيقة ثقافية وتاريخية كبرى، استطاعت أن تحفظ صورة المجتمع السوداني في العهد السناري بكل تعقيداته وتنوعاته. فالطبقّات– بحسب رؤيته – تمثل خطابًا مكتوبًا خرج من فضاء المجتمع المحلي، معبّرًا عن لغة الناس وتصوراتهم ومخاوفهم وأحلامهم ورؤيتهم للعالم، بعيدًا عن خطاب السلطة السياسية الرسمية وأدبياتها. ووما كتب في هذا الجانب نقتبس: «ويُعد الكتاب من أهم الآثار المكتوبة وأحد المصادر الأساسية التي يُعتمد عليها في معرفة حركة المجتمع السوداني في جميع جوانبه خلال فترة سلطنة الفونج (1504 – 1821).وكذلك يُذكر أن الكتاب يُعد المرجع الأول المطبوع لدارسي التصوف في السودان ومن المصادر الأولية المهمة في تاريخ سلطنة الفونج. ويتضمن الكتاب العديد من الإشارات التي تبين حياة التصوف والسلوك الاجتماعي في الدولة ومكانة الأولياء والمتصوفين في الحياة اليومية. لقد أثر الكتاب بشكل

وتناقض الذات في تاريخ السودان الوسيط والحديث! مقال منشور على موقع سودانيزاونلاين بتاريخ 27/10/2017م.

كبير على الثقافة السودانية، خاصة فيما يتعلق بالتراث الروحي والديني والأدبي. ويُعتبر مصدرًا غنيًا للباحثين والمهتمين بالتاريخ السوداني والتصوف والأدب العربي. وكتاب "طبقّات ود ضيّف الله" هو مرجع تاريخي وثقافي غني يُعنى بتوثيق سير الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان خلال فترة سلطنة الفونج. يُعد الكتاب من أهم المصادر التي تُظهر حركة المجتمع السوداني في جميع جوانبه، من النواحي الدينية والثقافية والاجتماعية[16].

لقد وضع ود ضيّف الله الأسس المبكرة للفقه وخلاوى القرآن في السودان، ولولا كتابه لكان تاريخ السودان في طيات الغيب. لقد أثار كتاب «طبقّاتود ضيّف الله» نقاشًا واسعًا بين المثقفين والمؤرخين السودانيين المعاصرين، حيث يُعتبر الكتاب من أمهات كتب التراث السوداني ومرجعًا أساسيًا لدارسي التصوف في السودان. من جهة، هناك من يُثمن الكتاب لما يحتويه من تراجم ومعلومات قيمة عن رجال الطرق الصوفيّةوالملوك والمشايخ والقضاة والشعراء في عهد دولة الفونج.. من جهة

16- زهير عثمان حمد. كتاب طبقات ود ضيّف الله- بين التراث الشفاهي ومعايير النقد الحديث. مقال منشور على موقع صحيفة سودانيل https://sudanile.com/%D9-83%D8%AA%D8%A7%D8%A8-%D8%B7%D8%A8%D9%82%D8%A7%D8%AA-%%D8%AF-%D9%88%D8%B6%D9%8A%D9%81-%D8%B6%D9%81%D9%81

أخرى، هناك من ينتقد الكتاب بسبب ما يرونه من روايات قد تُعتبر خرافية أو لا تعكس صورة إيجابية عن واقع التصوف في السودان. يُشير النقاد إلى أن الكتاب لم يحدد موقفًا واضحًا تجاه بعض الروايات التي قد تُقدح في صدقية طريق القوم.[17]

مؤلفات عن كتاب الطبقّات

منذ صدوره، حظي كتاب طبقّات محمّد نور ود ضيّف الله بعناية علمية لافتة، إذ تتابعت حوله الدراسات والبحوث التي عكست تعدد المقاربات واختلاف المناهج المعرفية عبر أزمنة متباينة. فقد تناولته أقلام عدد من الباحثين البريطانيين في سياق الحقبة الاستعمارية، ضمن اهتمامهم بدراسة البنية الدينية والاجتماعية في السودان، كما انصرف إليه لاحقًا جمعٌ من الباحثين والمؤرخين السودانيين وغيرهم، كلٌّ وفق خلفياته الفكرية ومدارسه البحثية. وقد أسهم هذا التراكم العلمي في إنتاج قراءات متعددة للنص، تراوحت بين التفسير التاريخي والتحليل الأنثروبولوجي والنقدي، مما أضفى على الكتاب مكانة متميزة بوصفه مصدرًا مركزيًا لدراسة تاريخ التصوف والمجتمع في السودان، ومرآةً تعكس تحولات الوعي الديني والثقافي عبر الحقب المختلفة.

17- المصدر نفسه

كان صاحب كاتب الشونة ، أول من نبه إلى قيمة كتاب الطبقّات، حيث أشار إليه وواصفاً إياه ومؤلفه بالمحقق والمحرر والعالم الرباني شيخ الإسلام المتفرد في عصره والحافظ للمذهب والشريعة وله تأليف قيم وجليل بعنوان ’’كتاب طبقّاتالصالحين ’’ والذي لم يسبقه عليه أحد من الكتاب المتقدمين والمتأخرين .

أما الشيخ ’’ السلاوي ’’ وزميله ’’ إبراهيم بن عبد الدافع ’’ فقد قاما بوضع مختصر لكتاب الطبقّات في شكل رجز وشرعا في الشرح بعد أن أضافا إليه بعضاً من الأعيان وذلك في كتاب بعنوان ’’ الذيل والتكملة ’’ .

وعلي نفس النسق والمنوال يشار إلي أن الشيخ السماني الورع ’’ عبد المحمود بن الشيخ نور الدائم ’’ قد تناول هذا الجانب في مجموعة من الوثائق المودعة من قبل ابنه الشيخ ’’ محمّد عظيم ’’ بدار الوثائق وكان شديد الاهتمام بكتاب الطبقّات وسير الأولياء والصالحين .

كما تناوله أيضا مكمايكل في ’’ تاريخ العرب في السودان ’’ إلي جانب مجموعة من المخطوطات السودانية العربية ، مبيناً في توطئة تعريفية موجزة ملخصاً لمقدمة الطبقّات مصحوباً بملخصات للتراجم .

ويستشف من كتاب " هيللسون " " نصوص عربية سودانية " والذي تفضل بنشره في العام 1935م ، أنه قد أولي اهتماماً خاصاً للبعض من الشخصيات التي وردت في كتاب " الطبقّات" بحيث كان المرجع الأساسي لإجلاء بعض من الحقائق الهامة حول الصوفيّةونهج التصوف بالبلاد .

ويعتبر الأستاذ " علي محمّد علي صالح « من الرعيل الأول من السودانيين المحدثين الذين تعرضوا لكتاب الطبقّات في كتاب مستقل تحت مسمى " ود ضيّف الله في كتابه الطبقّات" وقد نشر في العام 1962م ، كما تعرض له أيضا كل من الأستاذ " محمّد محجوب مالك " في عام 1966م ومن بعده الأستاذ " يوسف بدري " إلى الحياة الصوفيّةلدولة الفونج من خلال الاعتماد الكلي على كتاب الطبقّات إلى العام 1971م.

فالثابت أن الكتاب كان متداولاً عن طريق النسخ اليدوي وذلك في حيز ضيق فالمجمل وقتها لم يكن يتجاوز العدد القليل من النسخ الخطية والتي من بينها نسخة الشيخ حسب الرسول والتي اعتمد عليها " منديل " في أيضاحاته ، أما "مكمايكل " فقد اعتمد على نسخة الشيخ "الأمين بن حمد ولد طه من الشيخ خوجلي". أما صديق المحسي الأصل فقد اعتمد على ست نسخ خطية ، وهي نسخة كل من " الدولاني " و "

هيللسون " و " مدني " بينما النسخ المطبوعة قد تمثلت في النسخ التابعة لكل من " صديق ومنديل ومكمايكل «[18] .

كان كتاب الطبقّات مثار الاهتمام للعديد من المهتمين والباحثين من حيث الوقوف عنده والإشارة إليه أو بالاعتماد عليه بشكل واضح ومتميز وكان "نعوم شقير " من بين أوساطهم في مؤلفه التاريخي – الجغرافي القيم ، وكذلك "كروفورد " في كتابه "مملكة الفونج الإسلامية " وكل من الأستاذين "عبد المجيد عابدين " في " تاريخ الثقافة العربية في السودان " والعديد من مؤلفاته الأخرى ، وسار على منواله " عبد الله عبد الرحمن الأمين " في كتابه " العربية في السودان " والدكتور " مكي شبيكة " في تحقيقه " لمخطوط كاتب الشونة " والشاطر بصيلي عبد الجليل في التحقيق أيضا " لكاتب الشونة" والدكتور " هولت " في بحثه متناولاً " الأولياء والصالحين " والدكتور الشيخ حسن الفاتح الشيخ قريب الله في كتابه عن " التصوف في السودان إلى نهاية عصر الفونج " والدكتور " عبد القادر محمود " في كتابه " الطوائف الصوفيّة في السودان " و " الفكر الصوفي في السودان" وسار على نهجه " محجوب

18- سيف الإسلام بدوي بشير.ورشة عمل: إسهامات علماء السودان في كتابة التاريخ" ورقة بعنوان: مصادر تاريخ السودان ومؤرخيه ود ضيّف الله والسلاوي والكردفاني نماذجاً) . الرابط http://tanweer.sd/149

زيادة " في كتابه " الإسلام في السودان " وغيرهم من المؤرخين. وفي الواقع لا ينهض بحث مكتمل يتناول تاريخ الفونج أو تاريخ الإسلام في السودان أو التصوف إلا بعد الأخذ بيد الطبقّات والاستعانة به .

ويجئ من بعد ذلك مكملاً لدوره التاريخي البروفسور " يوسف فضل حسن" في التحقيق لكتاب " الطبقّات" وكما وصف فقد كان إنجازاً علمياً مقدراً صدر عن دار جامعة الخرطوم للنشر في العام 1971م ، أما الطبعة الثانية منه فقد كانت في العام 1975م لتتلوها سلسلة من الطبعات تباعاً[19] .

وفي ظني أن أعداداً مقدرة من الرسائل والأطروحات العلمية قد تم إنجازها حول هذا الجانب أو ذاك من مادة كتاب "الطبقّات" لود ود ضيّف الله ، داخل عدد من الجامعات داخل السودان ، وربما خارجه. فإذا ما كان البروفيسور يوسف فضل حسن قد حاز فضل تحقيق هذا السفر المهم تحقيقاً علمياً رصيناً ، وإخراجه في طبعات محققة ابتداءً من أوائل سبعينيات القرن الماضي على سبيل المثال ، فإنّ أستاذاً جامعياً سودانياً هو الدكتور بشارة حمد الذي يعمل أستاذاً مساعداً للغة العربية بجامعة "جون هوبكنز" الأمريكية ، قد حصل على شهادة

19- المصدر نفسه.

الدكتوراه من جامعة "تكساس-أوستن" بالولايات المتحدة في عام 1992 م ، عن أطروحته بعنوان: "ود ضيّف الله مؤرخاً: دراسة تحليلية وأدبية ولغوية لكتاب الطبقّات" ، وهي رسالة نأمل أن نرى ترجمةً لها إلى اللغة العربية قريبا.[20]

ومن الدراسات التي تناولت كتاب طبقّات ود ضيّف الله دراسةُ الشيخ الأمين الحاج محمّد أحمد، أستاذ المواد الشرعية بمعهد اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، والتي صدرت عام 2000م تحت عنوان «وقفات مع كتاب الطبقّات(طبقّات ود ضيّف الله)»، حيث تُعد من أبرز المحاولات النقدية التي سعت إلى قراءة الكتاب وتحليله في ضوء المنهج العقدي، وبيان ما يتضمنه من قضايا تتصل بالموروث الصوفي والتراجم التاريخية.

كتب الشيخ الأمين الحاج محمّد أحمد مؤلف الكتاب : «موضوع بحثنا خاص بطبقّات ود ضيّف الله وهو عبارة عن سجل صادق للحالة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية والسياسية للمجتمع السوداني في ثلاثمائة عام ونيف هي مدة حكم دولة الفونج الإسلامية، بل يعتبر كتاب الطبقّاتالمصدر

20- أنظر خالد محمّد فرح. المئوية الثانية لود ضيّف الله . مقال منشور على سودانيل، بتاريخ 18/ مايو/2009، على الرابط https://sudanile.com/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%A6%D9%88%D9%8A%D8%A9-

التاريخي الرئيسي لهذه الفترة. مهما يكن رأينا في كثير مما ورد في كتاب الطبقّات مما سنبينه ونشير إليه في أثناء البحث إلا أن الكتاب بعد (مرآة صادقة لحياة السودانيين الدينية والروحية والثقافية وسجل صادق المعتقداتهم الدينية في ذلك العصر أياً كان رأينا فيها كما يقول محقق كتاب الطبقّات في مقدمة الطبعة الثانية ، حيث ترك لنا معلومات ثرة عن معتقدات السودانيين والتي تمثل الجذور التاريخية لكثير مما هو سائد في سودان.[21]

بعد أن قدّم لكتابه «وقفات مع كتاب الطبقّات(طبقّات ود ضيّف الله)»، أورد الأستاذ الأمين الحاج محمّد أحمد في مستهل عمله جملة من الملاحظات التمهيدية التي مهّد بها لقراءته النقدية، حيث تناول فيها طبيعة الكتاب وأهميته، وأشار إلى منهجه في تناوله، مبرزًا ما يراه من إشكالات عقدية وتاريخية تستدعي الوقوف عندها بالدراسة والتحلي.: بعد كل هذا أود أن أذكر أن لي بعض الوقفات مع كتاب الطبقّات، بعضها وقفات عامة تتعلق بمعتقد وصور من ترجم لهم الكتاب نحو حكم الشرع في البناء على القبور، وتقسيم العلم إلى علم شريعة وحقيقة وعن تعريف الكرامة والولاية، وعن حكم التوسل

21- الأمين الحاج محمّد أحمد. وقفات مع كتاب الطبقّات طبقات ودضيّف الله. مركز الصف الإلكتروني للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان بيروت، 2000م – ص 8

بالصالحين أحياء وأمواتاً، ونحو ذلك مما له صلة بما ورد في كتاب الطبقّات. والبعض الآخر وقفات خاصة مع بعض المواقف المشرفة المضيئة، وجلها مع القائمة المخالفة للشرع. والبحث يتكون من فصلين الفصل الأول عن الوقفات العامة والثاني عن الوقفات الخاصة [22].

الوقفات العامة والخاصة مع كتاب الطبقّات لا تحصى كثرة ومردها كلها إلى العقيدة الصوفيّة والفكر الصوفي الذي يسيطر على أهل السودان سيطرة تامة، وذلك لأن الإسلام دخل إلى السودان عن طريق التجار ورجال الطرق الصوفية، وإلى ندرة العلم الشرعي في الماضي والحاضر وإحجام القليلين الذين يحملونه عن القيام بالواجب إما خوفاً أو طمعاً من الهيمنة الصوفية.

يقول محقق الطبقّات في مقدمته ولم يكن الاعتقاد في الأولياء وقفاً على عامة الناس بل اعتقد الملوك والسلاطين فيهم، وكانوا لا يشرعون في عمل هام إلا بعد مشورتهم كما فعل الشيخ عجيب عندما عزم على حرب الفونج فنهاه الشيخ إدريس اودة الأرباب متنبئاً بأنهم سينتصرون عليه وسيسودون ذريته إلى

22- المصدر نفسه ص 11.

يوم القيامة[23] .

الوقفة الأولى قلة العلم الشرعي وندرة العلماء الأكفاء في السودان

أولى الملاحظات، وأعظم التنبيهات التي تسترعي قارىء الطبقّات قلة العلم الشرعي - السني خاصة - وندرة العلماء الربانيين الأكفاء في السودان، في الماضي والحاضر، وإلا لما كان لأهل بلد يسوده العلم الشرعي السني، ويغشاه علماء أكفاء أن يروج فيه ما راج في السودان من ترهات وخرافات باسم الدين قديماً وحديثاً بما في ذلك ما حواه كتاب الطبقّاتمن خرافات وأساطير، إي والله فإن دين الله واحد وما لم يكن في ذلك اليوم ديناً فلن يكون اليوم ديناً[24].

بدلاً من أن نلقي باللوم على مؤلف الطبقّات ومحققه علينا أن نبين ما في هذا الكتاب من منكرات، علينا أن نعلم الناس الدين الحق الخالص، فإذا عرفوا دينهم تحصنوا وأمنوا تحريف الغالين، وتأويل المبطلين، وبدع المبتدعين.

يجب على العلماء وطلاب العلم أن يقوموا بدورهم في قيادة

23- المصدر نفسه- ص- 14.

24- المصدر نفسه- ص- 16.

المجتمع وريادته وألا يفسحوا المجال للأدعياء، وأنصاف المتعلمين، وأصحاب الأهواء، عليهم أن يبينوا الحق من الباطل، والسنة من البدعة، والهدى من الضلال.

عليهم ألا يخشوا في ذلك لومة لائم، وليحذروا كل الحذر منافقة المجتمع فالساكت عن الحق شيطان أخرس، وليتذكروا أن الله أخذ عليهم الميثاق كما أخذه على الذين من قبلهم لبيان الكتاب والسنة وللدفاع عنهما والذب عن حياضهما: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ**﴾ .

كل المواقف السابقة مردها إلى قلة العلم الشرعي وندرة العلماء الأكفاء.

ما سبق كان عبارة عن وقفات عامة لما أورده صاحب الطبقّاتوبيان الأحكام الشرع فيها إجمالاً، وفي هذا الفصل سنقف وقفات خاصة مع مواقف حسنة أو قبيحة لنبين حكم الشرع فيها، نصحاً لله ولرسوله ولدينه ولعامة المسلمين، وذلك لمكانة هذه الطبقّات في نفوس كثير من المسلمين في السودان وتأثرهم بها واعتمادهم عليها واستدلالهم بما ورد فيها من خوارق وحكايات .

وقبل الشروع في المقصود أود أن أنبه على الآتي :

أولاً: ليس غرضي مما سأورده في هذه الوقفات التشهير بأحد أو الانتقاص من مكانته، إذ هذا ليس من خلق المسلم.

ثانياً: ليس غرضي مما سأذكره الحكم على أحد بإسلام أو كفر لأن العبرة بالخواتيم التي لا يعلمها إلا الله، وإنما غرضي الحكم على ما ظهر من الأقوال والأعمال.

ثالثاً: لا أستطيع أن أجزم بصحة كل ما نسب لمن ترجم لهم، إذ قد تكون النسبة صحيحة، وقد يكون زيد في الحكاية أو نقص منها.

الوقفات المشرفة المشرقة

على الرغم من أن الوقفات المشرفة في كتاب الطبقّاتحسب الميزان الشرعي ليست كثيرة بالنسبة لغيرها إلا أنها ناصعة مشرقة استطاعت أن تبدد كثيراً من الظلام، وأن تقضي على كثير من المخالفات، وأن تحل السنة محل البدعة.

ومهما يقال عن كتاب الطبقّات فإنه لا يخلو من ومضات مضيئة وتجليات مدعة، سنشير في هذه الصفحات إلى أشهرها إذ ليس غرضنا ولا باستطاعتنا أن نحصي كل المواقف، حسنة أم سيئة.

وهـذه المواقـف الحسنة المشرفة تـدل دلالـة قاطعة على أن هـذه الأمة المكرمة لن تجتمع على ضلالة في يوم من الأيام قط، ولن تتفق على الخطأ والباطل مهما كانت درجة الجهل، وذلك أن الإسلام هو دين الفطرة، فلا تزال طائفة من هذه الأمة ظاهرة على الحق دائرة معه إلى أن تقوم الساعة وحتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، فنقول وبالله التوفيق.[25]

مع قاضي العدالة دشين وفسخه لأنكحة ابن عبد الصادق الباطلة اسمه دشين، ولقبه قاضي العدالة، لفسخه نكاح محمّد الهميّم بن عبد الصادق الذي جمع بين أختين وزيادة، وهو بصيلي من ذرية حماد البصيلي فرع من جهينة هاجر من صعيد مصر ، وهو جد محمّد بن مدني الذي تنسب إليه مدينة مدني.

ولـد رحمه الله بمدينة أربجي وكان شافعي المذهب، وهو أحد القضاة الأربعة الذين عينهم الشيخ عجيب المانجلك بأمر الملك دكين بن نابل خامس سلاطين الفونج (٩٧٦هـ - ٩٩٤هـ)، والقضاة الأربعة هم: الشيخ عبد الله العركي، والشيخ عبد الرحمن بن مسيخ النويري، والفقيه بقدوش بن سرور الجموعي على دار الجموعية، والقاضي دشين على أربجي وجميع الشافعية

25- المصدر نفسه ص 134

في السلطنة.

هذه التأثيرات المختلفة بتناقضها وتباينها، بسلبياتها وإيجابياتها، بما غاب منها وما حضر، بمشايخ الصوفيّة وبالفقهاء. هي التي صاغت المجتمع السوداني منذ ذلك الحين وإلى الآن، وهي التي ولدت الآتي:

1 - سيطرة الطرق الصوفيّة والفكر الإرجائي على الإنسان السوداني سيطرة تامة.

2 - غياب العلم السني بخاصة، وضعف العلم الشرعي بعامة، وندرة العلماء الأكفاء.

3- التعصب للمذهب المالكي والنفور عن كل ما يخالفه مهما ظهر دليله.

4- التعصب لما ورثوه عن الآباء والأجداد من غير تمحيص لما يوافق الشرع وما يخالفه.

5 - الكل في التحصيل والبحث وعدم الاشتغال بطلب العلم الشرعي والتأليف فيه.

6 - غربة العقيدة السلفية وندرة المعتنقين لها والداعين إليها.

7 - الطيبة والتسامح والمجاملة في أمور لا تسمح بذلك

والسكوت عن أشياء الساكت عنها شيطان أخرس

8 – ألقابلية لقبول الخرافات والشعوذة والدجل مهما كانت درجة مخالفتها للشرع.

يُلاحظ في طرح المؤلف قدرٌ من التناقض المنهجي الذي يستدعي الوقوف عنده بالنقد والتحليل؛ إذ يذهب إلى نفي وجود علماء متمكنين في العلوم الشرعية خلال فترة السلطنة الزرقاء (عهد الفونج)، وهي الفترة التي يؤرخ لها كتاب طبقّاتود ضيّف الله، مرجعًا ما شاع فيها من مظاهر الخرافة والدجل والشعوذة إلى ندرة العلم وغياب العلماء الربانيين الأكفاء. غير أنه، وفي موضع لاحق من دراسته، يُورد نماذج يصفها بالمشرقة من داخل المتن نفسه، فيُشيد بأدوار عدد من العلماء والرموز الدينية المنتمين إلى السياق الصوفي، مثل الشيخ محمود العركي (قاضي العدالة دشين)، والشيخ حمد ود أمريوم، والشيخ عبد الله بن موسى المعروف بالمشمر، والشيخ مالك بن عبد الرحمن ود حمدتو، والشيخ خوجلي وعبد الرحمن (الأمين، ص ص 131—154). وهو ما يكشف عن مفارقة واضحة بين حكمه الكلي بنُدرة العلماء، وإقراره الضمني بوجود شخصيات علمية فاعلة داخل الإطار نفسه الذي ينتقده.

ويُعزى هذا الاضطراب، في تقديرنا، إلى عدم التمييز المنهجي

الدقيق بين مستويين مختلفين في قراءة النص: أولهما، مستوى الروايات الشفاهية التي نقلها الرواة داخل الطبقّات، والتي حفلت بذكر الكرامات والمبالغات ذات الطابع العجائبي؛ وثانيهما، مستوى الواقع التاريخي الذي يعكس وجود علماء شريعة وممارسات علمية وتعليمية راسخة في المجتمع السوداني آنذاك. إذ لا يلزم من تضمين النص لروايات كرامية أن يُنفى وجود بنية علمية أو تقاليد فقهية، بل يقتضي الأمر قراءة نقدية تفصل بين الخطاب السردي وتمثلاته، وبين المعطيات التاريخية التي يمكن استنطاقها من خلاله.

ويزداد هذا الإشكال وضوحًا عندما يمدّ المؤلف حكمه التعميمي ليشمل الحاضر، حيث يقرر ندرة العلماء الأكفاء في السودان قديمًا وحديثًا، مستندًا إلى قوله: «أولى الملاحظات، وأعظم التنبيهات التي تسترعي قارئ الطبقّاتقلة العلم الشرعي — السني خاصة — وندرة العلماء الربانيين الأكفاء في السودان، في الماضي والحاضر...». وهو تعميم يفتقر إلى الدقة التاريخية، يتجاهل ما تزخر به البلاد، عبر تعاقب العصور، من أعلام وعلماء أسهموا في ترسيخ القيم الدينية والفضائل الأخلاقية، ونشروا منهجًا وسطيًا معتدلًا ومتسامحًا في فهم الدين وممارسته. ولعل هذا الموقف يُفهم في سياق انحياز منهجي أو تصوري ضيق لمفهوم «العالم» يختزله في نمط مذهبي محدد، لا يعبّر بالضرورة

عن التنوع التاريخي والمعرفي الذي عرفه المجتمع السوداني، ولا عن ثراء تجاربه الدينية والعلمية عبر العصور.

يرى الشيخ والداعية السوداني محمّد المنتصر الأزيرق المقيم الأن في الولايات المتحدة أن الروايات الواردة في كتاب طبقّاتود ضيّف الله، عند إخضاعها لمعايير الجرح والتعديل، لا تثبت من جهة الإسناد، ويغلب عليها الضعف أو الوضع. ويشير إلى ما ذكره عون الشريف قاسم من أن هذا الكتاب قد فُقد في فترة الثورة المهدية، مما يثير تساؤلات حول سلامة نصه المتداول. كما يؤكد الأزيرق أن مؤلفه محمّد النور ود ضيّف الله لم يغادر منطقة الحلفايا، وأنه اعتمد في جمع مادته على النقل الشفهي دون إسناد متصل. وعلى الرغم من إقراره بعلم الرجل وولايته، إلا أنه يلفت إلى غياب منهج التوثيق الحديث في الكتاب، إذ لا يصرّح المؤلف بسلاسل رواة واضحة، ولا يمكن التحقق من اتصال الإسناد أو عدالة الناقلين، الأمر الذي يضعف من القيمة الحديثية لهذه الأخبار. «لمن تجي للجرح والتعديل، هذه القصص مكذوبة، زي كتاب الطبقّاتللسيد محمّد بن ضيّف الله.

أول شيء: عون الشريف قاسم قال الكتاب دا فقد في زمن المهدية، وتمت طباعتو مرة أخرى، وما اعتمدوا على الأصل، فلازم يكون في زيادة ونقصان. اتنين: محمّد بن ضيّف الله لم

يخرج من حلفاية الملوك قط، يترجم لأشخاص في الجزيرة، في كردفان، في آخر البلد، يعتمد على النقل، الإسناد ما بذكرو. يعني ود ضيّف الله ما زي الشيخ عبد المحمود نور الدائم في أزهار الرياض، الشيخ عبد المحمود رضي الله عنه يقول ليك: «أخبرني أحد الفضلاء إنو فلان دا...»، طبعًا الشيخ عبد المحمود ابن ابن الشيخ الطيب ود البشير، المسافة بينو وبين الشيخ الطيب قريبة. لمن يسمع الشيخ القرشي ود الزين، يقول ليك: «قال الشيخ الطيب»، أو يسمع فلان يذكر، وفلان دا بتتوفر فيهو العدالة.

ود ضيّف الله عالم وولي، رضي الله عنه، ما بذكر في كتابو إسناد؛ يعني يتكلم على رجل بينو وبين ود ضيّف الله 400 سنة، 300 سنة، 150 سنة، 50 سنة، ما بقول ليك: «أخبرني فلان، وفلان أخبره فلان»، حتى نطلع على اتصال الإسناد في نقل الخبر، وعلى عدالة الرواة، وعلى عدم شذوذ في المسألة دي، أو علة قادحة. في نفس الإطار الحديثي هنا يدخل إليه لأنه هو خبر: هل هو مكذوب أم صحيح؟ هل تتوفر فيه العدالة أم لا؟ ود ضيّف الله ما بذكرها، يبقى النقل هذا، عندما يخرج من العدل الثقة الضابط –محل إشكال»[26] .

26- محمّد المنتصر الإزيرق. يويتوب https://mp.getsnap.link/videoShare/video?duration=330000&lang=ar&linkType=stShare&random_id=53&region=

إن من نافلة القول أن أعود هاهنا فأكرر ما سبقت الإشارة إليه في صدر هذا الحديث ، فأنا لا أتهم كاتب الطبقّات المؤرخ الصوفي محمّد ود ضيّف الله بإختلاق هذه الروايات الآثمة عمدا مع سبق الإصرار !! ولكن يؤخذ عليه أنه إكتال لكتابه بغير تمحيص أو سند موثوق ورغم ما حفل به الكتاب من أخطاء إلا أنه جهد مقدر وسفر عظيم في تاريخ أهل الصفة وأرباب التصوف في السودان ، ثم تضاعفت قيمة الكتاب وتدانت قطوفه بتحقيق البروفسير يوسف فضل ، وهو حجة في تاريخ السودان وموسوعة للفكر والثقافة الإنسانية ، وقد إعترف في طبعة الكتاب الأخيرة بما وقع فيه ود ضيّف الله من هنات وأخطاء ، وفتح باب الطبقّات على مصراعيه لكل ذي علم بسيرة وتاريخ أولئك العارفين من أقطاب الصوفية، فكانت هذه البادرة مني تجاوبا مع النداء[27] .

موضوع كتاب الطبقّات

كتاب الطبقّات عبارة عن تراجم لرجال الطرق الصوفية، وبعض الملوك، والمشايخ، والقضاة والشعراء في عهد دولة الفونج (1504–1820م)، وهو مقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسة،

27– محجوب برير محمّد نور. تراث وقبس من الفكر والتاريخ. شركة مطابع السودان للعملة. الخرطوم ٢٠٠١م، ص– 401.

يمثل الأول منها خطبة الكتاب، ويؤرخ الثاني في إيجاز شديد لنشأة مملكة الفونج وبعض العلماء والمتصوفة الأوائل، ويحتوي القسم الثالث والرئيس منه على مائتي وسبعين ترجمةً، تتفاوت في الطول والقصر حسب المعلومات التي كانت متوفرة عن المترجم له في ذلك الزمان، وتجمع معظم التراجم بين ثناياها تفاصيل عن حياة المترجم له، تشمل مكان مولده، ونسبه لأبيه وأمه، والعلوم التي درسها، وأسماء أساتذته، والشيوخ الذين أخذ عنهم طريق القوم، ثم التلاميذ والمريدين الذين أخذوا عنه العلم أو الطريق، وأسماء الكتب التي أطلع عليها أو ألفها، فضلاً عن ذكر كراماته وخوارق العادات التي درج العامة والخاصة على تناولها عند الحديث عن سيرته أو مناقبه. وحسب البروفيسور يوسف فضل حسن لا توجد نسخة خطية أصلية، تحمل توقيع المؤلف محمّد النور بن ضيّف الله (1727–1810م) ، أو عنوان الكتاب، وإنما ظهر هذا الكتاب أول مرة في نسخة مطبوعة نشرها القاضي الشرعي إبراهيم صديق عام 1930م، بعنوان «كتاب الطبقّات في خصوص الأولياء والصالحين والشعراء في السودان»، وفي العام نفسه ظهرت نسخة ثانية نشرها الشيخ سليمان داود منديل، بعنوان: «كتاب طبقّات ود ضيّف الله في أولياء وصالحين وشعراء السودان». وبعد بحث جاد وتنقيب دءوب استطاع البروفيسور يوسف أن يَرجِعَ هاتين النسختين

المطبوعتين إلى أصولهما، ويضيّف إليهما ست نسخ مخطوطة أخرى، جاعلاً عمدتها نسخة البِريّات، بحكم أنها أقدم النسخ المخطوطة، وأقربها إلى الأصل.

إذن البروفيسور يوسف فضل لم يكن أول من نشر كتاب الطبقّات في صورته المطبوعة، ولكنه أول من حققه تحقيقاً علمياً وافياً، استهله بمقدمة نفيسة، سرد فيها بإيجاز خلفية الظروف التاريخية والسمات الثقافية التي صُنِف فيها كتاب الطبقّات، وترجم للمؤلف وأسرته، وعرَّف القارئ بالمنهج الذي اتبعه في التحقيق، وشرح في الحواشي الألفاظ الصعبة، وترجم للأعلام والأماكن، ثم ذيل ذلك بثبت للمصادر والمراجع، وفهارس للأعلام، والأماكن، والبلدان، والقبائل، والكتب التي ذُكرت في الطبقّات، وبعض الكلمات والمصطلحات المشروحة في الحواشي. وبهذا الجهد المقدر استطاع أن يستوفي كل المعايير العلمية المتعارف عليها في تحقيق المخطوطات، ويتخذ لنفسه موقفاً محايداً، يتجلى في قوله: «ليس على المحقق في مثل هذا العمل الموضوعي أن يجعل نفسه حكماً على معتقدات الناس، بل واجبه في المقام الأول استجلاء الحقائق في منهج علمي».

كتاب الطبقّات يُترجِم لأكثر من مائتين وستين شخصية يعتبر هذا السفر القيم مرجعا أصيلا في أحوال نجوم المجتمع

الديني في حقبته التي غطاها الكتاب، إلا أنه و للإسف تم إختزال مادته الغنيه و معلوماته الثريه في قصة الشيخ محمّد الهميّم عبد الصادق والشيخ بانقا الضرير (أول من سلكا طريق القوم القادري في السودان) وزواج الأول المزعوم زورا وبهتانا من بنتي الثاني، و ما ترتب عليها من الضرر الذي أصاب قاضي العدالة بالمرض عند اصحاب التيار المعادي للتصوف بإنه الضلال وفساد عقيدة و منهج التصوف، وعند تيار أخر فإن الحادثة تمثل انتصار الباطن على الظاهر، أو انتصار الحقيقة على الشريعة، أو انتصار الإسلام الشعبي على الإسلام الرسمي، أو انتصار الصوفي على الفقيه وغيرها من الثنائيات التى ذهبت نحو الافصاح عن مغزى الحادثة.

هو كتاب تراثيٌ وفولكلوريٌ، يؤرخ لطرف من واقع الحياة السودانية في العهد السناري، ويحمل بين ثناياه ثلة من تراجم الأولياء، والصالحين، والعلماء، والشعراء في السودان. استقى مؤلفه، الشيخ محمّد النور بن ضيّف الله، رواياته من صدور حُفَّاظ ذلك التراث والمريدين له، وجمعها دون يفرض عليها المقاييس الشرعية. ولذلك جاءت بعض المتون المروية مخالفة للنقل والعقل؛ إلا أنها في الوقت نفسه تمثل نتاجاً طبيعياً للعقل السناري الذي كان مفعماً بكرأمات الأولياء، وناقلاً لأحداثها التي تشكلت على صعيد الواقع، أو تلك التي نسجها الرواة من

بنات أخيلتهم الشابة عن طوق المعقول والمنقول. إذا الدعوة إلى محاكمة متون الطبقّات في ضوء الكتاب والسنة وأصول التصوف دعوة فيها تنطع، وعدم موضوعية؛ لأن التاريخ لا يحاكم بمعايير الحاضر التي ترنو إلى إفراغ النص التاريخي من محتواه الاجتماعي والثقافي، ثم إعادة صياغته في قوالب نظرية تتفق مع تطلعات أصحابها الفكرية والأيديولوجية، وأحياناً العاطفية. وانسحاباً على ذلك لا يجوز اتهام المؤلف بالتقصير؛ لأنه لم يحاكم النصوص الواردة بين دفتي طبقاته وفق ضوابط الجرح والتعديل المتعارف عليها، ولا يستقيم عدلاً إلقاء اللائمة على المحقق في نصوص لم يكن رأوياً لها، أو جامعاً لمفرداتها، بل يستحسن أن يُثمّن عمله الرائد في ضوء المعايير المرعية في علم التحقيق[28].

فالطبقّات مكتوبة بلغة الناس ومتحدثة عن هموم الناس وناقلة لتصوراتهم وأفكارهم وأحلامهم وخيالاتهم وأوهامهم وعجزهم وآلامهم وأحزانهم وأساطيرهم القادمة من البعيد. إنه أمر غير معتاد، مع الوضع في الحسبان المحيط المعتم والمنفصم، الذي تحدثنا عنه أعلاه، أن يجي إنسان ويتحدث بلغة الناس من أجل الناس لا لغة الأجهزة الإدارية «السلاطين/الملوك/الأمراء»

28- محمّد جمال الدين. طبقات ود ضيّف الله وعلة التوثيق وأزمة الحضارة وتناقض الذات في تاريخ السودان الوسيط والحديث!

ذلك نادر في التاريخ!.

ولكل تلك الأسباب جاءت الطبقّات في غاية البساطة والإبداع والصدق مع الذات إلى درجة اشبه بالسذاجة وما هي كذلك!.. إنها فقط تشبه لحظتها التاريخية في أقصى الحدود الممكنة[29].

نقطة الضعف في الكتاب

فالكتاب يعتبر من أمهات كتب التراث والمرجع الأول المطبوع لدارسى التصوف فى السودان، لكنه يشكل نقطة ضعف رئيسية يستغلها منتقدى التصوف ويستثمره أدعياؤه.!. بل ويقف حجر عثرة فى طريق الأجيال الجديدة من موثقى ودارسى التصوف. وقد واجهت شخصيا صدودا ونفورا عند انطلاقة مشروع مجلة القوم عام 1985.. الكثيرون من بيوت التصوف السامقة كانوا يواجهونى بقولهم .. يكفينا ما ألحقه بنا كتاب الطبقّاتمن أذى وقد حققه رجل فى قامة البروفسير يوسف فضل وليس من عامة الناس !. ويقول لى الشيخ حماد زين العابدين من مشائخ السادة اليعقوباب ان الشيخ ود ضيّف الله ليس مسؤولا عن الكتاب الذى حمل اسمه لانه لم يترك نسخة مطبوعة او موقعة باسمه ويؤكد نفس المعنى الأستاذ الشاعر أحمد الخليل من أحفاد

29- المصدر نفسه.

الشيخ ود ضيّف الله .وقد ذكر البروفسير يوسف فضل أنه اطلع على ست نسخ واعتمد ثلاثة منها ، ويتساءل الشيخ زين العابدين لماذا لم يجعلنا من ضمن مراجعة ليناقش معنا ماوراه عن أبائنا والإتهامات الخطيرة التى وجهها اليهم وهى كفيلة باخراجهم من دين الإسلام! مساجدنا موجودة فى كل بقاع السودان وسلسة خلفائنا لم تنقطع عبر الأجيال منذ عهد الجد المؤسس الشيخ بان النقا الضرير وكذلك السادة الصادقاب المفترى عليهم أيضا. ![30].

يقول البروفسير يوسف فضل فى تحقيقه لكتاب الطبقّات أن الشيخ محمّد بن عبد الصادق الهميّم ، الجد الأكبر للصادقاب تزوج فى وقت واحد من بنتين من بنات الشيخ بان النقا الضرير ، جد اليعقوباب وكذلك تزوج بنتى الشيخ أبو ندودة فى رفاعة ، مما دفع الشيخ دشين الملقب بقاضي العدالة فى بلدة رفاعة لفسخ هذه الزيجات ويعلق الشيخ حماد فى حديثه لمجلة القوم ، العدد السابع بتاريخ يناير 1986، إن عدم دقة المحقق وتناقضه تتضح عندما ذكر فى سيرة اليعقوباب أن للشيخ بان النقا الضرير

30- يحيى العوض. الطبقّات : براءة ود ضيّف الله ومسئولية د.يوسف فضل !! . منشور على الرابط https://sudanile.com/%D8%A7%D9%84%D8%B7%D8%A8%D9%82%D8%A7%D8%AA-%D9%8A%D8%A9-%D8%AF-%D9%8A/

بنتان فقط وذكر اسميهما ، السيدة بتول الغبشاء واشار إلى اسم زوجها الشريف حماد ابن عبد الله الملقب بحماد الخفي وهو من أشراف الحجاز وانجب منها الشيخ هجو الملقب بأبوقرن والثانية زينب «نقاوة». ولم يرد فى تاريخ اليعقوباب أن للشيخ بان النقا الضرير بنتين باسمى كلتوم وخادم الله اللتين جمعهما الشيخ الجليل محمّد بن عبد الصادق زوجتين له كما زعم. ويضيّف الشيخ حماد ، إذا كان مثل هذا الأمر ، الجمع بين الأختين لا يصدق ولا يمارسه عامة المسلمين ، فكيف يرتكبه أهل العلم حفظة القرآن ومعلميه والذين مازالت مساجدهم عبر القرون ، منارات علم وتقوى وهداية.؟ وعلينا أن نتساءل أيضا عن حكم الشرع فى مثل هذا الزواج ، هل من المعقول أن يحكم القاضي بالفسخ فقط كما جاء فى الطبقّات أم يحكم بحد الزنا كما هو معروف شرعا ؟. ويقول كل الشواهد تثبت أن الرواية مدسوسة من أعداء البيتين الكبيرين ، اليعقوباب والصادقاب ، بل وهناك شكوك بان القاضي دشين عاصر عهد الشيخين الجليلين! والانكى من ذلك أن الرواية المنسوبة للشيخ ود ضيّف الله تقول أن الشيخ محمّد بن عبد الصادق الهميّم عندما سمع بحكم القاضي دشين دعا عليه « الله يفسخ جلدك» وبالفعل تفسخ جلد القاضي دشين.!! وهنا يكمن خطر الترويج لمثل هذه الروايات أو كما يطلق عليها العامة

« الكرامات» التى لايقبلها الشرع ولا العقل !.. وقد وقفت بنفسى على ضرر وفداحة تأثير هذه المقولات فى محاولاتى لتوثيق سيرة القوم وتنقيحها من السلوكيات التى تتنافى مع أصول التصوف ، فكنت افاجأ بامتناع الكثيرين والتزامهم الصمت ويبررون ذلك برواية فسخ جلد القاضي الذى اعترض على تعد واضح واوقف انتهاكا فى قضبة لا خلاف حولها بالنسبة للشرع ومع ذلك تقبل دعاء الشيخ الذي خالف تلك الاحكام وفسخ جلد القاضي الذى انتصر للحق![31]

وهناك العديد من الروايات الكاذبة فى حق التصوف فى السودان يحفل بها كتاب الطبقّات ومن غير المقنع ولا المفيد ترديد مقولات وتبريرات بان الكتاب من الموروثات الشعبية والفلكلورية ويعكس ثقافة عصر وليس كتاب علم وفقه.. الكتاب فيه ايجابيات لا شك فى ذلك ولكن بالتأكيد فان الشيخ محمّد نور بن ضيّف ليس مسؤولا عما نسب إليه فى النسخ المخطوطة الست والمعروف أن الكثير من المريدين والاصهار ينسبون تباهيا وفخرا لشيوخهم حتى يومنا هذا الكثير من الأساطير ظنا و جهلا بانهم يرفعون من مكانتهم والعكس صحيح.!. نسأل الله الصحة والعافية لاستاذنا الجليل البوفسير

31- المصدر نفسه.

يوسف فضل لاعادة تدقيق وتوثيق الطبقّات[32]

كتب البروفيسور عبد الله علي إبراهيم مقالاً بعنوان: «قرنان على وفاة ود ضيّف الله: موت المؤلف، حياة الفكرة» ، وذلك بمناسبة مرور مائتي عام على وفاة صاحب الطبقّات. وفي إطار المناسبة ذاتها كتب الأستاذ يحي العوض مقاله الموسوم ب «براءة ود ضيّف الله ومسؤولية د. يوسف فضل» ، والذي استهله قائلاً: «بقدر الاحتفاء بكتاب الطبقّات للشيخ محمّد النور بن ضيّف الله، ومرور مائتي عام على وفاته «1810-2010م»، يتوجب علينا تجديد النداء للبروفيسور يوسف فضل، لإعادة تحقيقه وتدقيقه.!. فالكتاب يعتبر من أمهات كتب التراث، والمرجع الأول المطبوع لدارسي التصوف في السودان، لكنه يشكل نقطة ضعف رئيسية يستغلها منتقدي التصوف، ويستثمره أدعياؤه.!.، بل ويقف حجر عثرة في طريق الأجيال الجديدة من موثقي ودارسي التصوف.» ويبدو أن هذا الإتهام قد أثار حفيظة رهط من المهتمين بالتراث السوداني، وفي مقدمتهم الأستاذ حمور زيادة حمور، الذي استهل مداخلته في سودانيزأونلاين بفرضية تقضي ببراءة البروفيسور يوسف فضل والشيخ ود ضيّف الله وتحمِّل الرواة المسؤولية ، وذلك انطلاقاً

32- المصدر نفسه

من تعليقه الساخر بأن مقال الأستاذ يحيى العوض «مقال عجيب، وحججه وقطعياته أعجب»، لأنه يقطع «صلة الشيخ محمّد ود ضيّف الله بكتاب الطبقّات المشهور والمطبوع، وينسبه إلى د. يوسف فضل، ويحمّله إثم المرويّات التي وردت في الكتاب، والتي اتخذها الناس مطعناً في مذهب المتصوفة. والمقال عاطفي، يناقش قضية علمية بغرض بَيّن، دون معرفة بعلم التحقيق، أو تاريخ الكتاب.» فالسجال حول هذه القضية اشتركت فيه نخبة من القراء والباحثين، وكل واحد منهم أدلى بدلوه إما مؤيداً ما ذهب إليه الأستاذ حمور زيادة، أو مناصراً الفرضية التي أنطلق منها الأستاذ يحيى العوض. وفي هذا المقال لا نود مناصرة أي من الفريقين، ولكن نحاول أن نضع الأمور في نصابها التاريخي، ونوطن للقضايا المختلف حولها في إطار الواقع الاجتماعي والثقافي الذي أسهم في صياغتها، وجعلها متداولة بين الناس، والمنهج الذي استخدمه الشيخ ود ضيّف الله في توثيقها ونقلها من حيز المشافهة إلى واقع الكلمة المكتوبة والمتداولة عبر الأجيال المتعاقبة. ثم نلقى ضوءاً ساطعاً على دور المحقق، البروفيسور يوسف فضل حسن، الذي كان مدركاً بطبيعة العمل الذي قام به، دون أن يحاكم النص من منظور الثوابت الشرعية، علماً بأن النص أضحى نصاً فولكلورياً، تخلّق في رحم مجتمع سناري متصوف، أكسبه بُعداً وظيفياً، وأضفى

عليه هالةً من القدسية؛ لأنه تدثر بكرامات القوم وفيوضاتهم الخارقة[33].

رؤية بروفيسور يوسف فضل للكتاب

وعن انطاع البروفيسور يوسف فضل على هذا المنحى في التدوين بقوله: «إن كتاب طبقّات ود ضيّف الله ... لهو مرآة صادقة لحياة السودانيين الدينية والروحية والثقافية والاجتماعية، وسجل صادق لمعتقداتهم الدينية في ذلك العصر أياً كان رأينا فيها. وقد سجل المؤلف ما تواتر من تلك الأخبار واشتهر دون أن يتعرض لها بالنقد والتعليق، بل وقف من كل ذلك موقف الرواي الأمين. ولا شك أن المؤلف في أخباره عن الشعوذة والخرافة التي كانت رائجة في زمانه، وفي حديثه عن الكرامات وخوارق العادات التي أسبغها الأتباع على مشائخهم حتى ظنوهم قادرين على إبراء المرضى، وإحياء الموتى، والأخبار عن الغيب، قد أرخ لكثير مما لا يرضاه العقل ولا يقبله الدين، لكنه ترك لنا معلومات ثرة عن معتقدات السودانيين، والتي تمثل الجذور التاريخية لكثير مما هو سائد في سودان اليوم»[34].

33- أحمد إبراهيم أبوشوك. كتاب الطبقّات: يوسف فضل وود ضيّف الله والرواة في دائرة الضوء - سودانيل نشر في 06 - 03 - 2010.
34- المصدر نفسه.

فقدان النسخة الأصلية

يقول البروفيسور يوسف فضل أن النسخة الأصلية من الطبقّاتقد ضاعت في المهدية، والنسخة الموجودة في حوزة الأسرة منقولة من نسخة البَرِّياب، التي جعلها البروفيسور يوسف النسخة العُمدة في تحقيقه لكتاب الطبقّات. فضلاً عن ذلك فإن كاتب الشونة، أحمد بن الحاج أبو علي (ت. 1838م) ، عندما أرَّخ لوفاة ود ضيّف الله، وصفه بأنه «صاحب تأليف جليلة، منها كتاب الصالحين الذي ما سبقه عليه في بلاده أحد من المتقدمين والمتأخرين، وشرح ابن عطاء الله، وله أيضا نبذة في السيرة. ولم يصلنا من مؤلفاته هذه إلا كتاب الطبقّات.» فلا جدال أن شهادة كاتب الشونة تعدل شهادات المعاصرين المتأثرة بانتماءاتهم الأسرية وتطلعاتهم المشروعة بوجود تصوف نقي من شوائب الشعوذة في السودان؛ لأن صاحبها عاصر ود ضيّف الله، ونقل طرفاً في كتاب الطبقّات في مصنفه الموسوم ب: تاريخ ملوك الفونج. إذا الإدعاء بنسبة متون الطبقّات إلى المحقق، إدعاء لا يستقيم مع واقع الحال، وكذلك قول الأستاذ يحي العوض، نقلاً عن الشيخ حماد زين العابدين، بأن البروفيسور يوسف فضل قد ذكر في تحقيقه لكتاب الطبقّات أن «الشيخ محمّد بن عبد الصادق الهميّم، الجد الأكبر للصادقاب، تزوج في وقت واحد من بنتين من بنات الشيخ بان النقا الضرير،

جد اليعقوباب، وكذلك تزوج بنتي الشيخ أبو ندودة في رفاعة» ، قول مجافٍ للصواب؛ لأن المحقق لم يذكر هذه القصة الغريبة من نسج خياله، بل وجدها متواترة في متون المخطوطات التي أسسها عليها تحقيقه، ولم يعلق عليها من قريب أو بعيد، بل التزم بالحيدة والموضوعية في عرضها دون أن يكون طرفاً من حُجيَّة النص المروي .

لماذا نحاكم الطبقّات بمعايير الحاضر؟

تنطلق انتقادات النقاد لمتون ود ضيّف الله من فرضية مركبة، مفادها أن كتاب الطبقّات لم يعط صورة إيجابية عن واقع التصوف في السودان، وأن المؤلف لم يحدد موقفاً داحضاً للروايات الخرافية التي تقدح في صدقية طريق القوم، وإن المحقق بنشره الكتاب قد أسهم في الترويج لتلك الترهات القادحة في أهلية بعض رجال الطرق الصوفية. وفي ضوء هذه الفرضية جاءت انتقاداتهم مرتبطة بالشكل والمضمون. فمن حيث الشكل يستأنس الأستاذ يحيي العوض بقول الشيخ حماد زين العابدين، أحد مشايخ السادة العقوباب، والذي ينفي نسبة الطبقّاتإلى الشيخ ود ضيّف الله، وانسحاباً على ذلك يقول: «إن الشيخ ود ضيّف الله ليس مسؤولاً عن الكتاب الذي حمل اسمه؛ لأنه لم يترك نسخة مطبوعة، أو موقعة باسمه» ، ويشاركه

في هذا الزعم الأستاذ الشاعر أحمد الخليل، أحد أحفاد الشيخ ود ضيّف الله[35].

يرى الدكتور محمّد عبدالله الحسين في مقاله المعنون «ما بين موسوعة أثيوبيا وكتاب الطبقّات» أن تقييم كتاب طبقّات ود ضيّف الله ينبغي أن يتم في ضوء الظروف التاريخية والسياق الفكري والثقافي الذي أُلف فيه، لا وفق معايير العصر الحديث ومنظوره العقلي السائد. وبعبارة أخرى، يؤكد ضرورة قراءة الكتاب ضمن بيئته الزمنية والفكرية، مع مراعاة طبيعة المعرفة وأساليب التدوين التي كانت سائدة آنذاك، بعيدًا عن إسقاط مفاهيم الحاضر وأدواته النقدية على نص ينتمي إلى سياق تاريخي مختلف: «عند محاولة تقييم كتاب الطبقّاتلا بد من أن نضع في الاعتبار الظروف والسياقات التي صاحبت تأليفه، والإمكانات المتاحة، من قِبل مؤلف وحيد. بالتالي فإن كتاب الطبقّات وفق الظروف المشار إليها إلا أنه يعتبر محاولة سديدة، تستحق الإشادة باعتبارها محاولة مبكرة. ومن الخطل بالتالي تقييمه وفق ظروفٍ غير نلك التي أُلِّف فيه الكتاب.[36]

35- المصدر نفسه

36- محمّد عبدالله الحسين. (ما بين "موسوعة أثيوبيا" وكِتاب "الطبقّات"). مقال منشور بتاريخ 23/يوليو/2025 على الرابط 85%D8%A7-%https://www.alrakoba.net/32067940/%D9 86-%8A%D9%%D8%A8%D9

يتمثل الموقف الثاني للنقاد في محاكمة متون طبقّات ود ضيّف الله في ضوء الكتاب والسنة وأصول التصوف الحقة؛ لأن كتاب الطبقّاتي حفل بالعديد «من الروايات الكاذبة في حق التصوف في السودان»، والتي نسبها بعض المريدين والأصهار تباهياً وفخراً بشيوخهم؛ إلا أن أصحاب هذا الموقف ينقسمون إلى فريقين. يحاول الفريق الأول أن يحاكم روايات ود ضيّف الله في ضوء الكتاب والسنة، ويقسمها إلى روايات طالحة وصالحة، فالطالحة من وجهة نظر هؤلاء تتمثل في الروايات المرتبطة بالتوسل، وعلم الغيب، والكرامات المرفوضة نقلاً وعقلاً، والعادات الخارقة، وزيارة القبور، ونصب القباب على قبور الموت؛ والصالحة يرمزون إليها بموقف الشيخ محمود العركي، الذي أمر الناس بالعِدَّة، لأن أهل السودان، حسب زعم ود ضيّف الله، كانوا يزوجون المطلقة في اليوم الأول أو الثاني في تاريخ طلاقها، أي أنهم لا يلتزمون بفترة العدة، وتطهير الأرحام. وبعض المسائل التي أثارها أصحاب هذا الفريق نجدها لا تزال محل خلاف عند أنصار الفريق الثاني، ونذكر منها على سبيل المثال قضية حكم البناء على القبور والتعلق بها، إذ يعدها الشيخ الأمين الحاج محمّد أحمد من «أقوى أسباب الشرك»، ويوصى بعدم جواز دفن الموتى في المساجد، ويدعو ولاة الأمر بأن «يهدموا القباب والأبنية القائمة على القبور، وأن يمنعوا تشيد الجديد

منها، لا أن يشجعوا ذلك ويفتتحوه، فإن في ذلك محادة لله ولرسوله، وعليهم كذلك أن يأمروا بنبش القبور التي بالمساجد، وأن ينقلوها إلى مقابر المسلمين.» ولا عجب أن هذا موقف يناقض الموقف الذي يدعو إليه الأستاذ يحيى العوض والشيخ حماد زين العابدين، لأنهما يريدان أن يجملا صورة التصوف في السودان بعيداً على الترهات التي ذكرها رواة التراث والمريدون عن مشايخهم[37].

إذا الإشكالية الجوهرية تكمن في حكمنا على متون الطبقّات، لا مقدمة المحقق وحواشيه الحاذقة الصنعة. هل هي متون دينية، يجب أن تهذب وتشذب وفق ثواب الشرع وأصول التصوف؟ أم هي متون «في التأريخ الاجتماعي والنفسي للشخصية السودانية الأوسطية (نسبة إلى السودان الأوسط)»؟ ومن ثم يمكن أن يستفاد منها في «معرفة ما يشكِّل مخيلة العامة، ويملي تصرفاتهم، وانفعالاتهم، ويحدد توقعاتهم. فليس مهماً أن نقرر ما إذا كانت الحوادث المذكورة في الكتاب قد وقعت، أو لم تقع، المهم هو أن جانباً كبيراً من المجتمع آمن بأنها وقعت، وأجرى حساباته، وشكِّل تصرفاته بناءً عليها، وبذلك تكوَّن لديه عقل وضمير جمعيان، يمليان انفعالات أفراده، سواء الصادرة منها

37- المصدر نفسه.

من منطقة الوعي، أو من منطقة ما دون الوعي في تفكيره، وهو يكاد أن يكون مسيراً بهما.» ويؤكد هذه النتيجة التي وصلها إليها الدكتور غازي صلاح أعلاه الدراسة الميدانية الجيدة التي أعدَّها الدكتور شرف الدين الأمين عبد السلام لنيل درجة الدكتوراه بجامعة إنديانا عام 1983م، ونقلها إلى العربية الدكتوران يوسف حسن مدني ومحمّد المهدي بشرى، تحت عنوان: كرامات الأولياء: دراسة في سياقها الاجتماعي والثقافي، ثم نشرها معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية عام 2007م. وتمثل الدراسة في مجملها امتداداً واقعياً للكرامات التي حفلت بها طبقّاتود ضيّف الله، وتوطِّن لها في سياقها الاجتماعي والثقافي، ثم تحلل إفرازاتها الوظيفية القائمة على استشفاء المرضي، والمكاشفات المرتبطة بمعرفة الأشياء الخفية والتنبوء بالمستقبل، ومسخ الأنفس وتحويلها إلى أشياء أخرى، والقدرة على الطيران في الهواء والمشي على سطح الماء، والسيطرة على الكائنات الحية، وإحياء الموتى. وبهذه الكيفية يعرض الدكتور شرف الدين الأدوار الوظيفية القائمة على مفردات العلاقة الجدلية بين الولي الصالح، والرواي، وجمهور المريدين والمصدقين لكرامات الأولياء في سياقاتها الاجتماعية والثقافية المتشابهة. وعلى النسق ذاته تأتي دراسة الدكتور عبد السلام سيدأحمد، الموسومة ب الفقهاء والسلطة في السودان:

قراءة في تاريخ الإسلام والسياسية في السودان، 1500–1821م، والتي تحاول أن تصطحب واقع المجتمع السناري في تحليلها للعلاقة السياسية بين السلطة والفقهاء في سنار، وتبين أهمية ذلك التراث السناري في فهم بواعث الحركة المهدية، وتكوين الطائفية–الدينية– السياسية لاحقاً[38].

يرتكز خطابُ معارضي التصوف في السودان — ولا سيما التيارات السلفية — في كثير من أطروحاته النقدية على ما أورده كتاب طبقّات محمّد نور ود ضيّف الله من روايات الكرامات المنسوبة للأولياء، حيث تُستَخدم هذه المادة بوصفها مدخلًا رئيسًا للطعن في المنهج الصوفي برمّته. ويلاحظ في هذا السياق قدرٌ من الانتقائية المنهجية، إذ يُختزل الكتاب في هذا البعد وحده، مع إغفالٍ واضحٍ لبنيته الأشمل وما يتضمنه من معطيات تاريخية واجتماعية وثقافية بالغة الأهمية.

فالتصوف في السودان، كما تعكسه نصوص الطبقّاتوغيرها من المصادر، لم يكن مجرد ممارسات روحية أو روايات تتناول الكرامات، بل اضطلع بدورٍ تأسيسي في بناء المجتمع، تمثل في إنشاء الخلاوى والمعاهد القرآنية، والإسهام في نشر التعليم الديني، وترسيخ القيم الأخلاقية، فضلًا عن دوره في نشأة القرى

38- المصدر نفسه.

وتنظيم الحياة الاجتماعية وتلبية احتياجات الناس في مختلف البيئات. غير أن هذه الإسهامات الجوهرية كثيرًا ما تغيب عن خطاب النقد السلفي، الذي يميل إلى التركيز على مظاهر محددة من التجربة الصوفية، وعلى رأسها الكرامات، بوصفها محورًا لتقويم التصوف والحكم عليه.

ومن خلال تتبع هذا الخطاب، يتضح أنه يتسم بنزعة اختزالية تُقصر التصوف على بعض ممارساته الطقوسية، كالأذكار والاحتفالات، وتتعامل معها بمعزل عن سياقها التاريخي والوظيفي داخل البنية الدينية والاجتماعية. كما أن هذا المنحى لم يشهد تحولًا جوهريًا منذ دخول الفكر السلفي إلى السودان، إذ ظل محافظًا على أنماطه النقدية ذاتها، وهو ما أسهم – إلى حدٍّ ما – في تشكيل مواقف متباينة داخل المجتمع السوداني تجاه التصوف.

ومع ذلك، فإن الواقع التاريخي والاجتماعي يشير إلى استمرار حضور التصوف بوصفه مكوّنًا أصيلًا في البنية الدينية للسودان، حيث ما تزال طرقه ومؤسساته تحتفظ بقدرةٍ ملحوظة على الاستقطاب والتأثير، لا سيما بين فئات الشباب ومختلف الشرائح العمرية، الأمر الذي يعكس عمق جذوره ومرونته في

التكيف مع التحولات الاجتماعية والثقافية عبر الزمن[39].

المثقفون وكتاب الطبقّات

أثار الكتاب المعروف والمشهور بـ طبقّات ود ضيّف الله، منذ ظهوره وانتشاره في الأوساط العلمية والثقافية، تباينًا واضحًا في مواقف المثقفين والباحثين تجاهه، حيث انقسمت الآراء حول قيمته العلمية والتاريخية بين اتجاهين رئيسين. فقد ذهب فريق من النقاد والباحثين إلى توجيه جملة من الملاحظات النقدية للكتاب، متعلقة بمنهجه في السرد التاريخي واعتماده الكبير على الرواية الشفاهية، وما صاحب ذلك من حضور واضح للكرامات والأساطير والروايات الشعبية التي رأى بعضهم أنها تؤثر في دقة التوثيق التاريخي وفق المعايير الأكاديمية الحديثة. كما انتقد آخرون محدودية الإطار الزمني والجغرافي لبعض التراجم، فضلاً عن غلبة النزعة الصوفيّةفي عرض الشخصيات والأحداث.

في المقابل، نظر فريق آخر من الباحثين والمؤرخين والمثقفين السودانيين إلى الكتاب بوصفه نصًا تأسيسيًا بالغ الأهمية في تاريخ الكتابة السودانية، بل وعدّه بعضهم أول نص مكتوب قدّم صورة واسعة عن الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية

39- المصدر نفسه.

في السودان خلال القرون السابقة، وعكس ملامح المجتمع السوداني وقيمه وأنساقه الفكرية والروحية. كما أُشيد بالكتاب باعتباره وثيقة تاريخية وأدبية فريدة حفظت تراجم العلماء والأولياء والفقهاء والشعراء، وسجّلت جوانب من الحياة اليومية والعلاقات الاجتماعية وأنماط التدين الشعبي، الأمر الذي جعله مصدرًا لا غنى عنه للباحثين في التاريخ السوداني والأنثروبولوجيا الثقافية والدراسات الصوفية.

ومن هذا المنطلق، فإن طبقّات ود ضيّف الله لم يكن مجرد كتاب للتراجم والمناقب، بل أصبح محورًا لنقاش فكري وثقافي واسع، استقطب اهتمام المؤرخين والكتاب والصحفيين والباحثين، الذين تفاوتت مواقفهم بين النقد والإشادة، وفقًا لزوايا النظر المختلفة ومنطلقاتهم المنهجية والفكرية. وفي الصفحات التالية تُعرض جملة من الآراء والمواقف التي عبّر عنها عدد من المثقفين السودانيين، إلى جانب رؤى المؤرخين والكتاب والصحفيين والباحثين، إزاء الكتاب ومؤلفه، بما يُسهم في إضاءة مكانته الفكرية والتاريخية في الوعي الثقافي السوداني.

ومن أوائل من تناولوا الحديث عن ود ضيّف الله، صاحب «كاتب الشونة» الشيخ أحمد بن الحاج أبو علي، إذ وصفه بالعالم المحقق الرباني، وشيخ الإسلام، وفريد عصره، في إشارةٍ

إلى مكانته العلمية والدينية المرموقة وما حظي به من تقدير بين معاصريه، قائلًا :«حافظ المذهب والشريعة، المحقق المحرر العالم الرباني، شيخ الإسلام، فريد العصر».

كما كان للبروفيسور يوسف فضل محقق الكتاب انطباعه في هذا هذا المنحى بقوله: «إن كتاب طبقّات ود ضيّف الله ... لهو مرآة صادقة لحياة السودانيين الدينية والروحية والثقافية والاجتماعية، وسجل صادق لمعتقداتهم الدينية في ذلك العصر أياً كان رأينا فيها. وقد سجل المؤلف ما تواتر من تلك الأخبار واشتهر دون أن يتعرض لها بالنقد والتعليق، بل وقف من كل ذلك موقف الرواي الأمين. ولا شك أن المؤلف في أخباره عن الشعوذة والخرافة التي كانت رائجة في زمانه، وفي حديثه عن الكرامات وخوارق العادات التي أسبغها الأتباع على مشائخهم حتى ظنوهم قادرين على إبراء المرضى، وإحياء الموتى، والأخبار عن الغيب، قد أرخ لكثير مما لا يرضاه العقل ولا يقبله الدين، لكنه ترك لنا معلومات ثرة عن معتقدات السودانيين، والتي تمثل الجذور التاريخية لكثير مما هو سائد في سودان اليوم» [40].

فيما يرى الباحث الأستاذ تاج السر عثمان أن محمّد نور ود

40- أحمد إبراهيم أبوشوك. كتاب الطبقّات: يوسف فضل وود ضيّف الله والرواة في دائرة الضوء - سودانيل نشر في 06 - 03 - 2010.

ضيّف الله، في تدوينه للواقع الذي عرضه في مؤلفه الطبقّات، قد عبّر عن خصوصية التجربة السودانية، مميِّزًا إياها عن النماذج السابقة في كتب الطبقّات، مثل طبقّات الشعراني والطبقّات الكبرى . ويذهب عثمان إلى أن ود ضيّف الله يُعدّ ثمرة مباشرة للنظام التعليمي الذي أسّسه المتصوفة أنفسهم في مستهل حقبة الفونج. وفي هذا السياق، يقرر عثمان قائلاً: «نأخذ على سبيل المثال أن ود ضيّف الله عندما كتب الطبقّاتأستفاد من كتابة التاريخ على نحو الذي كان سائداً في العالم الإسلامي من ناحية الشكل مثل : الطبقّات الكبرى ، طبقّات الشعراني في الأولياء والصالحين، ولكن ود ضيّف الله عندما كتب الطبقّاتأخذ خصوصية السودان في الاعتبار. ولم يكرر ما هو معروف ومشار إليه في طبقّات الشعراني مثلاً أو الطبقّات الكبرى ، ولكنه أشار إلى طبقّاتأو تاريخ الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان وبالتالي جاء المؤلف بتلك الخصوصية السودانية التي قدم فيها معرفة جليلة وقيمة بالتاريخ السوداني الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والفني والأدبي والعلمي والديني ، بل حتى استخدم اللهجة. اللهجة السودانية التي كانت سائدة.

فود ضيّف الله كان محلياً ، ولكنه هذه المحلية هي التي اضفت على هذا الكتاب أن يكون مصدراً هاماً من مصادر هاما من مصادر دراسة التاريخ السوداني في تلك الفترة. ود ضيّف الله

إذن هو نتاج ذلك التعليم الذي ابتدعه أهل الفونج والذي جاء أصيلا وتابعاً من احتياجات الواقع السوداني»[41].

يكتب الباحث الأستاذ محمّد جمال الدين أن كتاب الطبقّاتكانت يمثل اشارقة تاريخية موجهة للشعب مباشرة (سوق مستقل) فجعل ود ضيّف الله لأول مرة في تاريخ سودان الوسيط سلطة مستقلة للكتابة عن السلطة الرسمية!. وتلك النقطة في وجهة نظري هي سر الجدل الدائر حول الطبقّات كل الوقت، كونها ليست صنيعة دواوين رسمية ولا وليدة معارضة لسلطة قائمة «كدا بس» وإنما هي صولجان في حد ذاتها!.

فالطبقّات مكتوبة بلغة الناس ومتحدثة عن هموم الناس وناقلة لتصوراتهم وافكارهم وأحلامهم وخيالاتهم وأوهامهم وعجزهم وآلامهم وأحزانهم وأساطيرهم القادمة من البعيد. إنه أمر غير معتاد، مع الوضع في الحسبان المحيط المعتم والمنفصم، الذي تحدثنا عنه أعلاه، أن يجي إنسان ويتحدث بلغة الناس من اجل الناس لا لغة الأجهزة الإدارية «السلاطين/الملوك/الأمراء» ذلك نادر في التاريخ!.

ولكل تلك الأسباب جاءت الطبقّات في غاية البساطة

41- تاج السر عثمان. كتاب لمحات من تاريخ مملكة الفونج الاجتماعي. الخرطوم – الطبعة الثالثة 2025.

والإبداع والصدق مع الذات إلى درجة اشبه بالسذاجة وما هي كذلك!.. إنها فقط تشبه لحظتها التاريخية في أقصى الحدود الممكنة[42].

وفي سياق الحديث عن أهمية كتاب طبقّات ود ضيّف الله وأثره بوصفه نصًا تاريخيًا توثيقيًا مؤسسًا للكتابة السودانية، يشير الصحفي والباحث زهير عثمان حمد إلى أن الكتاب لا يُقرأ باعتباره مجرد سجل لمناقب الأولياء أو مجموعة من الحكايات المرتبطة بالتصوف الشعبي، وإنما بوصفه وثيقة ثقافية وتاريخية كبرى، استطاعت أن تحفظ صورة المجتمع السوداني في العهد السناري بكل تعقيداته وتنوعاته. فالطبقّات— بحسب رؤيته — تمثل خطابًا مكتوبًا خرج من فضاء المجتمع المحلي، معبّرًا عن لغة الناس وتصوراتهم ومخاوفهم وأحلامهم ورؤيتهم للعالم، بعيدًا عن خطاب السلطة السياسية الرسمية وأدبياتها. ووما كتب في هذا الجانب نقتبس: «ويُعد الكتاب من أهم الآثار المكتوبة وأحد المصادر الأساسية التي يُعتمد عليها في معرفة حركة المجتمع السوداني في جميع جوانبه خلال فترة سلطنة الفونج (1504 — 1821).وكذلك يُذكر أن الكتاب يُعد المرجع الأول

42- محمّد جمال الدين. طبقات ود ضيّف الله وعلة التوثيق وأزمة الحضارة وتناقض الذات في تاريخ السودان الوسيط والحديث! مقال منشور على موقع سودانيزاونلاين بتاريخ 27/10/2017م.

المطبوع لدارسي التصوف في السودان ومن المصادر الأولية المهمة في تاريخ سلطنة الفونج. ويتضمن الكتاب العديد من الإشارات التي تبين حياة التصوف والسلوك الاجتماعي في الدولة ومكانة الأولياء والمتصوفين في الحياة اليومية. لقد أثر الكتاب بشكل كبير على الثقافة السودانية، خاصة فيما يتعلق بالتراث الروحي والديني والأدبي. ويُعتبر مصدرًا غنيًا للباحثين والمهتمين بالتاريخ السوداني والتصوف والأدب العربي. وكتاب "طبقّاتود ضيّف الله" هو مرجع تاريخي وثقافي غني يُعنى بتوثيق سير الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان خلال فترة سلطنة الفونج. يُعد الكتاب من أهم المصادر التي تُظهر حركة المجتمع السوداني في جميع جوانبه، من النواحي الدينية والثقافية والاجتماعية[43].

لقد وضع ود ضيّف الله الأسس المبكرة للفقه وخلاوى القرآن في السودان، ولولا كتابه لكان تاريخ السودان في طيات الغيب. لقد أثار كتاب «طبقّاتود ضيّف الله» نقاشًا واسعًا بين المثقفين والمؤرخين السودانيين المعاصرين، حيث يُعتبر الكتاب من

43- زهير عثمان حمد. كتاب طبقات ود ضيّف الله- بين التراث الشفاهي ومعايير النقد الحديث. مقال منشور على موقع صحيفة سودانيل https:// sudanile.com/%D9%83%D8%AA%D8%A7%D8%A8-%D8%B7%D8%A8%D9%82%D8%A7%D8%AA-%D9%88%D8%AF-%D8%B6%D9%8A%D9%81-%D8%A7%D9%84%D9%84%D9%87-%D8%A8%D9%8A%D9%86-...

أمهات كتب التراث السوداني ومرجعًا أساسيًا لدارسي التصوف في السودان. من جهة، هناك من يُثمن الكتاب لما يحتويه من تراجم ومعلومات قيمة عن رجال الطرق الصوفيّةوالملوك والمشايخ والقضاة والشعراء في عهد دولة الفونج.. من جهة أخرى، هناك من ينتقد الكتاب بسبب ما يرونه من روايات قد تُعتبر خرافية أو لا تعكس صورة إيجابية عن واقع التصوف في السودان. يُشير النقاد إلى أن الكتاب لم يحدد موقفًا واضحًا تجاه بعض الروايات التي قد تُقدح في صدقية طريق القوم.[44]

ومن جانبها، أبدت الصحفية المرموقة الأستاذة أمال عباس رؤيتها حول الكتاب، حيث كتبت معبّرةً عن تقييمها وموقفها منه، فقالت: «وفي طبقّات ود ضيّف الله قد تجد بعض الأشياء التي تصفها أنت بأنها «خرافة» وغير علمانية.. لكنها هي حقيقة تلك الفترة وقناعات الناس.. ولا ننسى أن تلك الفترة شهدت أحداثا غاية الأهمية في تاريخ العالم.. فسقوط الأندلس لم يكن شيئاً عابرا في تاريخ الإنسانية بصورة عامة وتاريخ الإسلام على وجه الخصوص.. وقلت لمحدثي أن التعامل مع ما جاء في كتاب الطبقّاتيشكل نقطة مهمة ومفصلية في قضية موقفنا من التراث، ذلك لان فترة مملكة الفونج أو السلطنة

44- المصدر نفسه

الزرقاء من أطول الفترات التي تركت آثارها وأضحة في بناء الشخصية السودانية التي نتعامل معها اليوم.. ونحن عندما نقرأ أخبار الأولياء وكراماتهم نكتشف من خلالها طبيعة أفكار الناس في تلك الفترة.. بل وفهمهم للدين.. ونقاط التماس ما بين نبتة ومروي وعلوة.. والمقرة وبين الثقافة الإسلامية القادمة مع المتصوفة.. ووقفة تأمل صغيرة مع أسلوب تاج الدين البهاري الذي اتخذه في إعطاء طريق التصوف، تجعلنا أكثر إيمانا باهمية تصعيد البحث عن رسم حدود نهائية للهوية السودانية [45] .

يُلاحظ أنّ المفكّر السوداني حيدر إبراهيم قد انخرط، في سياق تناوله لاحتفالية سنار عاصمة الثقافة الإسلامية لعام 2017، في خطاب نقدي يندرج ضمن توجهات شريحة من النخب السودانية المعاصرة. ففي مقاله الموسوم «سنار.. تزييف التاريخ: احتفال بـ 500 سنة من الركود»، يعمد إلى إعادة قراءة التراث السوداني، متخذًا موقفًا نقديًا من كتاب كتاب الطبقّات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، حيث يصنّفه ضمن إطار السرديات الخرافية، وينفي عن رموز ما يُعرف بـ»الإسلام الشعبي» إسهامات علمية راسخة من حيث التأليف أو الإنتاج المعرفي. وفي هذا السياق، يطرح حيدر

45- أمال عباس. حكايتي مع كتاب الطبقّات – 14/2/-2013 الراكوبة.

إبراهيم جملة من التساؤلات الموجّهة إلى السلطات السياسية الراعية لهذه الاحتفالية، وهي تساؤلات تتجاوز ظاهرها النقدي للخطاب الرسمي لتكشف، في جوهرها، عن موقف نقدي أعمق من البنية الصوفيّةالتقليدية وممثليها « هل يستوعب النظام الإسلامي كل هذه الخرافات، والمعجزات، والكرامات،والمناقب التي امتلأ بها كتاب طبقّاتود ضيّف الله؟ ماهي الإضافات الفقهية والفكرية التي أسهم بها (الفقرا) المنتشرين في بقاع السودان، هل تركوا المصنفات الفقهية والمؤلفات الدينية كما فعل أهل (تمبكتو)؟ هل لإبن عربي عن وحدة الوجود أم اكتفوا بمختصر الخليل وحزب السيف؟[46]

وفي مقالٍ منشور على موقع سودانيل تحت عنوان «المئوية الثانية لود ضيّف الله»، يصف الباحث والكاتب والدبلوماسي الدكتور خالد فرح الفقيه محمّد النور ود ضيّف الله بأنه «جبرتي السودان»، في إشارةٍ إلى مكانته التوثيقية والتاريخية المشابهة لدور المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي في تدوين التحولات الاجتماعية والدينية والتاريخية. كما يشير إلى أن كتاب «الطبقّات» قد ترك أثرًا بالغًا في العديد من الأعمال الأكاديمية والأدبية، وأسهم بصورةٍ واضحة في تشكيل الوعي بتاريخ السودان الثقافي

46- حيدر إبراهيم علي. سنار.. تزييف التاريخ – احتفال ب 500 سنة من الركود – منشور على موقع سودانيزأونلاين.

والديني. وفي هذا السياق، نقتبس مما أورده الكاتب ما يلي: «مهما يكن من أمر ، فإنّ ود ضيّف الله سيظل هو شيخ الكتاب السودانيين ، أو هو إن شئت ”جبرتي السودان“ ، كما أن كتابه الطبقّات، سيظل هو “ عيبة “ الثقافة والمعارف السودانية لسودان ما قبل الدولة العصرية الحديثة. وود ضيّف الله بالتالي ، هو أهل لأن تحتفي به الدولة السودانية ، وان يكرمه المؤرخون ، والكتاب ، والمثقفون ، والعلماء، والفقهاء ، والمتصوفة السودانيون بمختلف مشاربهم وتوجهاتهم. فغني عن القول أنّ ود ضيّف الله وكتابه ”الطبقّات“ قد خلفا أبلغ الأثر على أعمال طوائف كثيرة من الأكاديميين والمبدعين السودانيين الذين ما يزالون يمتاحون من معينه الثر. فقد شملت المجالات المعرفية والإبداعية التي ألهمها إياهم كتاب الطبقّاتألواناً من التاريخ (مكمايكل ويوسف فضل)، والفلكلور ، واللسانيات، والأنثربولوجيا، والرواية (الطيب صالح)، والمسرح (ريش النعام لخالد المبارك وبعض أعمال عثمان جمال الدين) ، وكذلك رؤى محمّد عبد الحي الشعرية ، ورؤى مدرسة الخرطوم التشكيلية ، وهذا على سبيل المثال فقط ، لا الحصر .[47]

47- خالد محمّد فرح. المئوية الثانية لود ضيّف الله . مقال منشور على سودانيل، بتاريخ 18/ مايو/2009، على الرابط https://sudanile.com/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%A6%D9%88%D9%8A%D8%A9-

وفي سياق رؤيته للكتاب، كتب الدكتور غازي صلاح الدين، المفكر الإسلامي السوداني المعروف والوزير السابق، معبِّرًا عن تقييمه وانطباعه تجاه الكتاب، إذ قال: »قبل الاستطراد في تأويل هذه القصة أود أن أذكر بأنني اشترطت أن يقرأ كتاب ود ضيّف الله ليس باعتبار أن ما ورد فيه صحيح أو غير صحيح، أو أنه كتاب تعرف منه أحكام الدين، وإنما باعتبار أنه رؤيا وراء واقعية، وكتاب تتفحص من خلاله تكوين البنية النفسية والعقلية في السودان الأوسط في القرون الخمسة الماضية»[48]

في مقاله المعنون «ما بين موسوعة أثيوبيا وكتاب الطبقّات»، يشير الباحث الدكتور محمّد عبدالله الحسين إلى عمق العلاقات التاريخية والثقافية المشتركة بين السودان وأثيوبيا، مستندًا إلى ملاحظاته البحثية حول الهجرات التاريخية وتداخل الإرث الحضاري بين البلدين. ويبرز اهتمام أثيوبيا الجاد بتوثيق تاريخها وإرثها الثقافي، مستشهدًا بـ Encyclopaedia Aethiopica بوصفها مشروعًا علميًا قوميًا شاملًا يوثق التاريخ والثقافة الأثيوبية

48- غازي صلاح الدين العتباني. صورة الزعيم الخارق ونفوذها على الحياة العامة السودانية
قراءة سريالية لعالم ود ضيّف الله. دراسة منشورة على موقع تأسيس، على الرابط
https://www.tasees.org/wp-content/uploads/2023/08/%D8%B5%D9%88%D8%B1%D8%A9.pdf

والإريترية بمختلف أبعادها، بما في ذلك القضايا التاريخية الجدلية، ويغطي مجالات متعددة مثل التاريخ والجغرافيا واللغات والآثار والدين والثقافة، بما يعكس حرصًا واضحًا على تثبيت حضورها الحضاري في التاريخ الإنساني. وكان مما كتب في سياق المقارنة بين الموسوعة الأثيوبية وكتاب الطبقّاتلمحمّد نور ودضيّف الله مايلي: «لابد لي أن اعترف بأن معرفتي بهذه الموسوعة ساقتني للمقارنة بيننا وبينهم من حيث الاهتمام بتدوين وتوثيق التاريخ والإرث الثقافي على المستوى القومي. ولم أجد ما يعزّي النفس في تقصيرنا بهذه الناحية إلا وجود بضع أعمال سبقت بأزمان عديدة الإنجاز الأثيوبي. تمثل هذه الأعمال منارات سامقة في هذا الاتجاه خاصة بمقياس الزمن الذي أُنجِزت فيه وبحسبان أنها جاءت بمبادرات فردية. من بين هذه المبادرات كتاب طبقّات ود ضيّف الله الذي بالرغم من اختلاف النوايا والمقاصد حاول أن يقدم توثيقا مهما لفترة زمنية طويلة خلال دولة الفونج.[49]

يواصل الدكتور محمّد عبدالله الحسين ليقول في ذات السياق: «خلال بحثي عن معلومات عن موسوعة أثيوبيا وجدت نفسي

49- محمّد عبدالله الحسين. (ما بين ”موسوعة أثيوبيا“ وكِتاب ”الطبقّات“). مقال منشور بتاريخ 23/يوليو/2025 على الرابط https://www.alrakoba.net/32067940/%D9%85%D8%A7-%D8%A8%D9%8A%D9%86-

استعرض مجهوداتنا كسودانيين حول التوثيق القومي لتاريخنا، وإرثنا الثقافي. أستطيع القول إنه على حسب علمي لم أجد ما أحسبه يرقى لما نطمح إليه، باستثناء بضع مجهودات فردية في غياب الرؤية القومية والتنسيق والإشراف المؤسسي. من جانب آخر وبالرغم من هذا القصور، يُعتبر كتاب «طبقّاتود ضيّف الله» الذي سبق ظهور موسوعة أثيوبيا بأكثر من مائتي عام كعمل طليعي للتوثيق التاريخي والثقافي المبكر بمعيار الزمن الذي ظهر فيه. كان الهدف كتاب الطبقّاتكان الهدف منه توثيق سيَر وتراجم الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء خلال فترة الفونج. فكتاب الطبقّاتب الرغم من أنه نتاج عمل فردي إلا أنه تجاوز الهدف من تأليفه ليكون فيما بعد عملا مرجعيا وتوثيقيا قيما. فكتاب الطبقّاتقدم صورة وافية عن الأشخاص/العوامل المؤثرة في المجتمع في ذلك الوقت. بالإضافة لذلك قدم الكتاب ملمحا واضحا عن البيئة الثقافية والتصورات والفهم الشعبي للدين والحياة في ذلك الوقت. علما إن ما ورد في كتاب الطبقّات يلقي الضوء على الهوية العربية والإسلامية وهي في بواكير تشكُّلِها.[50]

50- المصدر نفسه

الباب الثاني

«وجمعت بين الأختين ماكفاك»

مقدمة

جاء في صفحة (90) من كتاب طبقّات ودضيّف الله عن القاضي دشين والشيخ الهميّم القصة التي تقول : أن الشيخ (الهميّم) زاد في نكاحه من النساء على المقدار الشرعي وجمع بين الأختين حيث أنه تزوج بنات ابو ندودة الاثنتين في رفاعة و جمع بين بنات الشيخ بان النقا الضرير كلتوم وخادم الله فأنكر عليه القاضي دشين فأدعى الشيخ (الهميّم) أن الرسول صلى الله عليه وسلم أذن له في ذلك والشيخ إدريس يشهد وكان الشيخ إدريس حاضراً فقال للقاضي دشين : (اتركه بينه وبين ربه) فرفض القاضي دشين و قال أنه سيفسخ نكاحه فرد عليه الشيخ (الهميّم) قائلاً : (الله يفسخ جلدك) فمرض القاضي مرضاً شديداً حتى إنفسخ جلده .

تُعدّ العبارة المنسوبة إلى القاضي دشين: «وجمعتَ بين الأختين ما كفاك» —كما أوردها صاحب الطبقّات محمّد النور بن ضيّف الله — من النصوص التي أثارت إشكالًا في التلقي والتأويل، لما تحمله من دلالات قد تمسّ بصورة غير مباشرة سمعة بعض الأسر والرموز الصوفية. وقد شكّلت هذه الرواية، بما تنطوي عليه من لبسٍ تاريخي وسردي، دافعًا رئيسًا لتأليف هذا العمل الموسوم ب: «تصحيح المرويّات في «طبقّات ود

ضيّف الله»: دراسة توثيقية تحليلية في أخبار الشيخين الهميّم وبانقا الضرير».

وينطلق هذا البحث من مقاربة نقدية توثيقية تسعى إلى إعادة فحص الروايات الواردة في الكتاب، في ضوء منهج علمي يقوم على المقارنة بين المصادر، وتحليل الأسانيد، واستنطاق السياقات التاريخية والاجتماعية التي أُنتجت فيها تلك الأخبار. كما يستند إلى جملة من المصادر الأولية، إلى جانب ما صدر لاحقًا من دراسات أكاديمية ومقالات علمية، فضلًا عن الإفادات الشفاهية التي جُمعت عبر مقابلات مع عدد من أفراد الأسرتين المعنيّتين: أسرة الشيخ الهميّم وأسرة الشيخ بانقا الضرير.

وقد أسهم هذا التنوع في المادة العلمية في إضفاء قدرٍ من التوازن والعمق على الدراسة، ومنحها نفسًا تحليليًا وحجّةً أكاديمية رصينة، مكّنتها من مقاربة هذه القضية الحسّاسة بروحٍ علمية منصفة، غايتها تصحيح ما ورد من مرويات قد يعتريها الوهم أو التجنّي، وصون الذاكرة الاجتماعية من الأحكام غير الموثّقة، لا سيما في ما يتصل بالأنساب والاعتبارات الرمزية للأسر ذات الامتداد الديني والتاريخي.

الجمع بين الأختين سبب للعداوة ونزع المحبة

يحرّم الجمع بين الأختين بلا خلاف فيه بين المسلمين قاطبة . ويدلّ عليه قوله تعالى : (وَأَن تَجْمَعُوا بَينَ الأختين) والنصوص المتضافرة . ويحرم الجمع بين الأختين مطلقاً أي سواءً كان الزواج منهما دائمياً أو تزوج إحداهما بزواجٍ دائم و الاخرى بزواجٍ

منقطع أو كان الزواج منهما منقطعاً, ففي تمام هذه الفروض يكون الزواج من الثانية باطلاً.

وأما علة حرمة الجمع بين الأختين فهذة أحكام تعبدية فيجب علينا الالتزام بها ولانعلم الحكمة من ذلك والله أعلم بالمصالح والمفاسد للأحكام الشرعية.

وقد ذكر الشيخ الصدوق العلة التي من أجلها حرم الجمع بين الأختين أخبرني علي بن حاتم قال: أخبرنا القاسم بن محمّد قال: حدثنا حمدان ابن الحسين عن الحسن بن الوليد عن مروان بن دينار قال: قلت لأبي إبراهيم عليه السلام لأي علة لا يجوز للرجل أن يجمع بين الأختين، فقال: لتحصين الاسلام، سائر الأديان ترى ذلك[51].

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ... وَأَنْ**

51- https://almojib.com/ar/question/124534

تَجْمَعُوا بَيْنَ الأختين إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 23].

تأمل قول الله تعالى: ﴿ **وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأختين** ﴾، وهو يعدِّدُ أصناف المحرمات من النساء!

وتأمل لِمَ حرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى الجمعَ بين الأختين؟ وانظر إلى رحمة الله تبارك وتعالى بعبادهِ وإلى إحسانِهِ إليهم!

لَمَّا جُبِلَ الإنسانُ على الشُّحِّ، وطُبِعَ على الاستئثارِ، والمرأةُ بطبيعتها لا تحب أن يشاركها في زوجها أحدٌ، فمن شاركها فيه نابذته العداء، ونال من البغض نصيبًا موفورًا بسبب غيرتها، حرَّمَ الله تعالى الجمع بين الأختين لهذه العلة، فتلك المحبة التي ترعرعت في قلبيهما، حتى أورقت وأثمرت وأينعت، وضربت بجذورها في أعماقهما، ستُقْتَلَعُ من جذورها عند اقتران الزوج بهما، وينقلب الحبُّ بغضًا، والولاءُ عداوةً يشبُّ أوارُها في قلبيهما كل حين، ولا تسمع لخلاف ذلك (فليس الخبر كالمعاينة)، ولهذا تعجب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أم حبيبة حين سألته أن يتزوج أختها، فعَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ، قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ لَهُ: هَلْ لَكَ فِي أُخْتِي بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ؟ فَقَالَ: «أَفْعَلُ مَإذا؟» قُلْتُ: تَنْكِحُهَا، قَالَ: «أَوَ تُحِبِّينَ ذَلِكِ؟» قُلْتُ: لَسْتُ

لَكَ بِمُخْلِيَةٍ، وَأَحَبُّ مَنْ شَرَكَنِي فِي الْخَيْرِ أُخْتِي، قَالَ: «فَإِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِي.

وسُؤالُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوَ تُحِبِّينَ ذَلِكِ؟»، تعجبًا من حال أُمِّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ لأنه خلاف الأصل[52].

فمنع الله تعالى الجمع بين الزوجين لبقاء الودِّ بينهما، ومفسدة التباغض بين الأختين أعظم من مصلحة الزواج بهذه الأخت على وجه الخصوص.

وأمَّا إباحة الشرع لتعدد الزوجات على ما يكون بينهم من التحاسد والتباغض، فلأنَّ المصلحة في تشريعه أعظم بكثير من تلك المفسدة، والشريعة إنما أتت بجلب المصالح وتكميلها، ودرأ المفاسد وتقليلها[53].

كان العربُ قبلَ الإسلامِ يَجمعونَ بينَ الأختين في الزَّواجِ، ولَمَّا جاءَ الإسلامُ نَهَى عن جَمْعِ الرَّجلِ بينَ الأختين في الزَّواجِ، وفي هذا الحَديثِ يقولُ فيَروزُ الدَّيلَميُّ رَضِي اللهُ عنه: «أتيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم، فقلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي أسلَمتُ وتَحْتي

52- سعيد مصطفى دياب. الجمع بين الأختين سبب للعداوة ونزع المحبة. مقال منشور على شبكة الألوكة -https://www.alukah.net/shari-a/0/164174/%D8%A7%D9%84

53- المصدر نفسه

أُخْتان»، أي: مُتزوِّجٌ مِن أختين، فما حُكمُهما؟ فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم: «اخترْ أيَّتَهما شِئتَ»، وهذا كِنايةٌ عن مُفارَقةِ إحْداهنَّ وإبقاءِ الأخرى؛ لأنَّ اللهَ قال في المحرَّماتِ مِن النِّساءِ: **{وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأختين إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ}**) النساء: 23[54])

سؤال: ما هي العلة في تحريم الجمع في الزواج بين الأختين، أو بين الزوجة وعمتها أو خالتها؟

الجواب: العلة والله أعلم، المحافظة على حق القرابة وصلة الرحم، لأن الزواج بالقريبة، العمة أو الخالة مع ابنة أختها، أو مع ابنة أخيها، هذا يسبب القطيعة، لما بين الضرتين من الحمية والغيرة من بعضهن على بعض، وهذا يسبب التقاطع في الرحم، فلأجل ذلك، والله أعلم نهى الشارع عن الجمع بين المرأة وعمتها، وعن الجمع بين المرأة وخالتها[55].

لا يجوز الجمع في الزواج بين الأختين (نسبيتين أو رضاعيتين، أو إحداهما نسبية والأخرى رضاعية) ، بلا فرق بين الدوام والانقطاع، أو إحداهما دائمة والأخرى منقطعة ففي كل هذه

54- علوى بن عبدالقادر السقاف. الموسوعة الحديثية، على الرابط https://dorar.net/hadith/sharh/77495

55- 551/https://shamela.ws/book/8612

الصور يحرم ولا يصح الجمع بين الأختين. فلو تزوج (دواماً أو انقطاعاً) بإحدى الأختين، ثم تزوج بالأخرى (دواماً أو انقطاعاً) بطل العقد الثاني، ولو حصل العقدان في وقت واحد بطل الاثنان معاً[56].

ب -لو طلق زوجته الدائمة طلاقاً رجعياً فلا يجوز ولا يصحالتزوج بأختها قبل انقضاء عدتها. وإذا كان الطلاق بائناً جاز له التزوج بأختها في الحال. وأما لو كانت الزوجة متمتعاً بها وانقضت مدتها أو وهبها المدة، فلا يجوز الزواج بأختها قبل انقضاء العدة وإن كانت بائنة[57].

تناول فقهاء الإسلام ومفسروه مسألة تحريم الجمع بين الأختين لا بوصفها حكمًا تعبديًا مجردًا فحسب، وإنما بوصفها حكمًا قائمًا كذلك على علل عقلية وأخلاقية واجتماعية واضحة. فقد نصّ القرآن الكريم في قوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿**وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأختين**﴾ [النساء: 23]، وهو نصّ صريح في تحريم الجمع بين الأختين في عصمة رجل واحد.

وقد بيّن العلماء الحكمة من هذا التحريم، فذكر أبو عبد الله

56- جمعية المعارف الإسلامية الثقافية. فقه العلاقات الزوجية. مركز نون للتأليف والترجمة- بيروت -2013 ص- 86.

57- المصدر نفسه – ص 68.

القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن أن الله تعالى حرّم الجمع بين الأختين لما يفضي إليه ذلك من قطيعة الرحم، فقال: «حرّم الله تعالى الجمع بين الأختين؛ لما في ذلك من قطيعة الرحم، إذ الغالب من حال الضرائر التباغض، فإذا انضم إلى ذلك ما بين الأختين من الرحم كان أدعى إلى التقاطع والتدابر». ويُفهم من كلامه أن الغيرة الطبيعية بين الزوجات قد تكون محتملة في غير القريبات، لكنها تصبح أشد خطرًا حين تقع بين أختين تربطهما رابطة دم وقرابة وثيقة، مما يجعل احتمال التباغض والقطيعة أقوى وأشد.

وفي السياق نفسه، قرّر يحيى بن شرف النووي في شرح صحيح مسلم عند شرحه حديث: «لا تُنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها» أن العلة في هذا المنع هي ما ينشأ عنه من العداوة وقطيعة الرحم، فقال: «قال العلماء: سبب النهي ما يقع من العداوة وقطيعة الرحم؛ لأن ذلك يفضي إلى التباغض والتدابر، وقطع ما أمر الله به أن يوصل». وهذا التعليل لا يقتصر على العمة والخالة، بل يُفهم منه بطريق الأولى تحريم الجمع بين الأختين، لأن رابطة الأختية أقوى اتصالًا وأشد حساسية.

كما أكد ابن قدامة المقدسي في كتابه المغني هذا المعنى، إذ

قال: «ولا يجوز الجمع بين الأختين بغير خلاف؛ لما فيه من قطيعة الرحم، وإثارة العداوة بينهما، لما جُبل عليه النساء من الغيرة». ويظهر من هذا النص أن الفقهاء راعوا في الحكم طبيعة النفس البشرية، إذ اعتبروا الغيرة أمرًا فطريًا في العلاقات الزوجية، ومن ثم منعوا كل ما من شأنه أن يضاعف آثارها ويحوّلها إلى سبب في هدم العلاقات الأسرية.

وسار علاء الدين الكاساني على النهج ذاته في بدائع الصنائع، حيث علّل التحريم بقوله: «لأن الجمع بينهما يؤدي إلى التباغض والتقاطع، وقطع الرحم، إذ كل واحدة تغار من الأخرى، فيفضي ذلك إلى فساد ذات البين». وهذا النص يربط بين الجانب العقلي والجانب الأخلاقي؛ فمن جهة عقلية، يفضي الجمع بين الأختين إلى نزاع متوقّع بحكم الطبيعة البشرية، ومن جهة أخلاقية، يؤدي إلى فساد العلاقات وإفساد رابطة الأخوة نفسها.

ومن مجموع هذه النصوص يتضح أن تحريم الجمع بين الأختين في الإسلام ليس مجرد حكم تعبدي منفصل عن الواقع الإنساني، بل هو تشريع يهدف إلى حفظ الأسرة وصيانة صلة الرحم ومنع أسباب العداوة والنزاع. فالشريعة هنا تراعي البناء النفسي والاجتماعي للأسرة، وتسعى إلى حماية المودة

بين الأقارب، ومنع كل ما يؤدي إلى تفكك الروابط الأسرية أو إفسادها. وعليه، فإن العلة الجامعة التي ذكرها العلماء تتمثل في: منع التباغض والغيرة المؤدية إلى قطيعة الرحم وفساد ذات البين داخل الأسرة.

الباب الثالث

الشيخ محمّد الهميّم ود عبدالصادق

لمناقشة هذه القضية المحورية بقدرٍ أعمق ومنهجٍ أكثر تدرجًا، يحسن بنا أن نبدأ باستحضار السياق التاريخي والروحي الذي تشكّلت فيه شخصية الشيخين الهميّم وبانقا الضرير، وذلك عبر الوقوف على ملامح سيرتهما من حيث النشأة، والأصول الأسرية، وامتداد الذرية، ثم التعمق في تجربتهما الصوفيّةومكانتهما الدينية، إلى جانب المكانة التي حظيت بها أسرتاهما في المحيط الاجتماعي والديني. فمن خلال هذا العرض المتكامل يمكن أن تتكشف لنا الخلفيات الحقيقية للإشكال محل النقاش، وأن تتضح مواضع الالتباس أو الاختلاف في الروايات.

وعليه، سنستهل هذا المسار بسيرة الشيخ محمّد الهميّم بن عبد الصادق، متتبعين جذوره الأولى، والبيئة التي نشأ فيها، والعوامل التي أسهمت في تشكيل وعيه الديني والصوفي، وصولًا إلى دوره ومكانته في محيطه، تمهيدًا لفهم أعمق لطبيعة القضية التي نحن بصددها.

الصادقاب الركابية

تنسب كلمة الصادقاب إلى الشيخ عبد الصادق، والد الشيخ

محمّد الهميّم شيخ الطريقة، فهو الشيخ محمّد الهميّم بن الشيخ عبد الصادق بن السيد عبد الرحمن بن السيد حسن حاشر بن السيد عبد النبي بن السيد ركاب الذي تنتسب إليه الركابية بن السيد غلام الله[58].

إسهامات أسلاف الصادقاب في نشر الدين الإسلامي داخل وخارج السودان

لا يخفى على أحد دور آل البيت الكرام رضي الله عنهم في تحمل المشاق والمكابدة في نشر الدعوة الإسلامية وحمل راية لا إله إلا الله والذود عنها ونشر النور المحمّدي في الخليقة إذ أنهم وراثه (صلى الله عليه وسلم) وهم ثمار تلك الشجرة الطيبة المباركة وسوف أذكر بعض الأمثلة لأسلافهم فلقد قام جدهم السيد عمر الزيلعي بنشر الدين الإسلامي في القرن الإفريقي في منطقة إثيوبيا والصومال وجيبوتي وإرتريا حتى أن ملك الحبشة هم بمحاربته، خشية على المسيحية في بلده ولقد كان دور عمر القدوة الحسنة والتطبيق الحي في نفسه أولاً فانقادت له أنفس العباد وبعد ذلك غادر إفريقيا عائداً إلى الجزيرة العربية فاستقر به المطاف مع الشيخ أبو بكر العقيلي بمنطقة الأخية

58- موسوعة أهل الذكر في السودان. الخرطوم- مطابع السودان للعملة- 2004، ص 365.

شمال اليمن، على الساحل بين جدة وعدن وعقبه ولده السيد أحمد المقبول السائح وذهب إلى جدة وأسس زاويته وكانت تقام بها الأذكار خاصة في عصر كل جمعة حسب رواية المؤرخ الإنجليزي (بيرتون) ويضربون الدفوف وكان ضريحه بها ظاهراً يزار واشتهر بالسيد المقبول راجل جدة ، وبعد ذلك أمر السيد أحمد ولده السيد عائد أبو الفتح للذهاب غرباً لنشر الدعوة على شاطئ البحر الأحمر بالسودان ففعل وضريحه عند مدخل ميناء سواكن الحالي واشتهر بأبي الفتح راجل سواكن بعد ذلك اتجه ولده السيد غلام الله الشريف أحمد المجمر « غرباً إلى دنقلا لأجل تأسيس خلاوي القرآن وتدريسه وعلومه في أوائل القرن الثامن الهجري فدخل سكان دنقلا ونواحيها في الإسلام على يديه طواعية وأسس مسجده بالقرب من كنيسة دنقلا العجوز فأنجب ابنيه السيد ركاب جد الركابية والسيد رباط ومن اسميهما نستدل على هؤلاء الرجال في سلوكهم على نهج اسلاقهم من ركوب الخيل للجهاد والمرابطة في سبيل الله تعالى وكان من أحفاد الشيخ غلام الله أولاد جابر الأربعة الأكابر ناشري العلم والدين [59].

عندما ذهب الشريف حمد أبو دنانة الحسني إلى شمال السودان؛

59- المصدر نفسه ص 366.

كان مجازاً من شيخه السيد أحمد زروق الفاسي مؤلف قواعد التصوف خليفة السجادة الشاذلية في وقته ، فقد استصحب معه زوجته السيدة خديجة بنت الشيخ محمّد الجزولي مؤلف دلائل الخيرات فأنجبت للشريف حمد أبو دنانة سبع بنات وولداً واحداً فأنجبت بناته السبع سبعة صالحين نشروا الدين والصلاح في السودان وكانت منهن السيدة مكة والدة الشيخ محمّد الهميّم بن الشيخ عبد الصادق « عالم أربجي[60] .

الشيخ محمّد الهميّم ود عبد الصادق « آداب الفيلة»

كان والده الشيخ عبد الصادق المكنى «بتور الفجة» من علماء أربجي الأجلاء وكان يدرس بها العقيدة والتوحيد، فولد له من السيدة مكة بنت الشريف حمد أبو دنانة، أربعة من الأولاد هم الشيخ محمّد الهميّم ، أحمد العالم ، إدريس و محمّد أبو البتول ، فنشأ الشيخ محمّد الهميّم في بيت دين وشرف وصلاح فكان تواقاً إلى معرفة ربه ، فعندما كان في السابعة عشر من عمره ، قدم إلى السودان الشيخ تاج الدين البهاري القادري البغدادي من الحجاز بدعوة من حجاج السودان، وكان خليفة الشيخ عبد القادر الجيلاني فتنقل بين وادي شعير والعكد وأربجي وسنار وغيرها من بقاع وسط السودان وتزوج من العكد وفي

60- المصدر نفسه، ص- 366.

يوم من الأيام طلبت زوجة الشيخ تاج الدين البهاري دوكة فذهب إلى الشيخ محمّد الهميّم واشترى الدوكة وحملها على رأسه فوجد الشيخ قد ارتحل من العكد إلى وادي شعير فتبعه إلى هناك ووجده كذلك قد ارتحل إلى سنار فلعلو همته تبعه وكان يضعها على رأسه حيث ينام ويحملها في سيره إلى أن قدم على الشيخ في سنار فعندما رأي الشيخ منه ذلك قال في دعائه يا ولد أصلح الله بهمتك هذه أمر دينه.

أوصى الشيخ تاج الدين الشيخ بانقا والشيخ عجيب باتباع محمّد الهميّم لعلو شأنه وأنه خليفة الشيخ عبد القادر الجيلاني وأمرهم بأن ينظروا إليه مثل نظرتهم له وقد كان اسمه محمّد حسان فسماه الشيخ تاج الدين بمحمّد الهميّم[61].

«الشيخ محمّد الهميّم بن عبد الصادق بن مالك ابن ماشر الركابي. أخذ الطريق من الشيخ تاج الدين البهاري وسلكه وأرشده ووصله مقامات الأولياء ووكله في مكانه. وقال لتلاميذه مثل ما ابتّعاينوا لىْ تعاينُوا إليه.»[62]

لم نجد من المراجع ما يوضح العام الذي ولد فيه، إلا أنه فيما

61- المصدر نفسه- ص 367

62- عمر محمّد الأمين. وقفة مع المرويات المؤسسة للشخصية السودانية في كتاب الطبقّات. مصدر سابق.

يبدو من مواليد 930 هـ) ، قرأ من القرآن إلى سورة الزلزلة»، وأخذ بيعة الطريقة القادريّةمن الشيخ البهاري، ويذكر أن عمره آنذاك بين الثامنة عشر أو العشرين سنة. التقى بالشيخ البهاري بشرق الجزيرة، ولم يفارقه إلى أن سافر إلى الحجاز، وكانت والدته تلقبه (بحسان) فقال لها البهاري: ولدك عبد الله اسمه محمّد) الهميّم (، ويروي ود ضيّف الله أن سبب هذا اللقب أن الشيخ البهاري قال له: (يا محمّد جيبو لنا دوكة) وهو يومئذ في قرية أربجى فاشتراها وشالها فوق رأسه فوجد الشيخ سافر إلى سنار. ولحقه في سنار وهي على رأسه ولم يجده، وقالوا له سافر إلى بلده فلحقه في غُويْبة أربجي وهو شايل الدوكة على رأسه. فقال له الشيخ البهاري: يا محمّد يا ولدي هذه همة تصلح بها لإقامة دين الله عز وجل، فوقع مغشيا عليه وسافر الشيخ إلى وادي شعير. وقال لهم: إن هذه الغيبة لا يفيق منها إلا في وجه رب العالمين.[63]

الهميّم خليفة البهاري في المملكة السنارية

فلما أراد الشيخ البهاري السفر إلى بلاده، وجمع تلاميذه وخلف محمّد ود عبد الصادق شيخا للطريقة، وبعد حديثٍ مع تلاميذه قال لهم: أنا جئت من بغداد لأجل هذا الولد خلفته

63-

في مكاني. مثل ما بتعاينوا لي عاينو له) ((.. والشيخ البهاري بهذا قد طلب من تلاميذه أصحاب بيعة الذبح بأربجي أن يكونوا عونا لأخيهم الشيخ الهميّم. وكان حديث البهاري لهم أن يوفوا معه بشروط البيعة التي تفرضها الآية الكريمة }يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ{]المائدة: 1 [، والطاعة التي تفرضها يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأمر مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا [النساء:59]. [، عقد البيعة يوجب الطاعة لأن الشيخ بعقدها أصبح من أولي الأمر. لقد وضع الشيوخ العلماء مبنى التصوف وعقوده على الكتاب والسنة، وكل تصوفٍ لم ينضبط بأوامر الكتاب والسنة وهو عندهم تصوف مبتدعٌ، ويساعدنا في هذا الحديث النبوي «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها، ومن سن سنة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها» وكان الشيخ البهاري والأيام تنصرم مسرعة بالسفر من حيث أتى، وحديث سمر في بعض الليالي بين الشيخ البهاري وتلميذه الهميّم، و يبدو في تلك الساعات حدث طور إشراق روحي فقال له: يا محمّد ولدي سبع سنين لا دين ولا دنيا وبعد هنُ يجيئك الدين والدنيا وتسكن أرضا يقال لها النادرة سلوكة ودلوكة و يسُو ق فيها مال (الحجاز واليمن). وقد هيئ الله له بعد سفر أستاذه

أن دخل خلوة في (دلوت) سبع سنين، وأختلى فيها للتعبد وهذا الإنقطاع إلى الله تعالى وهو الذي يعنيه البهاري بقوله بعد هذه السنين يتيسر لك أمر الدين والدنيا، ومع هذه الخلوة كان يقومُ بخدمة زوجة شيخه و بناته في قرية «العكُ». قال ود ضيّف فلما تم سبع سنين جاءه الخضر (عليه السلام) وأمره بالسلوك عنده، فجاءه شيخه وقال له خذ منه. و بعد سفر الشيخ البهاري إلى بلاده بدأت مرحلة جديدة لم تخطر ببال الهميّم وهي التي عناها بقوله: سبع سنين لا دين ولا دنيا، يعنى أنك بعد هذه السنين التي تنقطع فيها لله تعالى بالذكر والعبادة تحصل لك المعرفة الإلهامية والذوقية[64].

الهميّم إلى المندرة

كان الشيخ ود عبد الصادق حقا من أولي العزم والصدق وجديرٌ أن يسمى بالهميّم لقد انقطع سبع سنين للذكر والعبادة في خلوة) دلوت (ألم يكن الرجل حق ا من أولي البأس والقوة. وبعد طلوعه إلى أرض المندرة التي أمر بالسكن فيها، كان فيها البسط بعد القبض وفتح الله عليه في أمر الدين والدنيا، فتوافد عليه الناس بغُية الإرشاد والبركة والاستقرار حوله. ومن بركات

64- محمّد الحسن أبوقرون. الطريقة القادريّةفي السودان والدعوة إلى الله. الخرطوم، 1999.

هذه الفتوح كان إخوته الشيخ بانقا الضرير مع تقدم سنه وبعُد غابة الحمُر عن المندرة يزوره كل عام، وكذلك الشيخ عجيب المانجلك مع مشاغل الملك أيضا يزوره في حاشيته من الوزراء والجنود فإذا اقترب من الشيخ الهميّم منع ضرب النقرة. وخلع لباس الملك ولبس جبة الفقرآء. مع بعد هذه البلدة إلا أن تلاميذ بيعة أربجي لم ينقطعوا عن زيارته ومعاونته بإعتباره خليفة الشيخ البهاري في المملكة السنارية. وفي مسار تأسيس البنية الجديدة[65] .

تلاميذه

أول تلاميذه أبناؤه وأبناء عمومته وخلق كثير في وسط وشرق السودان وجموع غفيرة من قبائل رفاعة والشكرية والمسلمية والركابية والهدندوة والبني عامر والأشراف وخلق لا يمكن حصرهم إنما فقط الإشارة تكفي والآن مساجد أتباعه وأبنائه تربو على الخمسين مسجداً عدا الزوايا والتكايا والرباطات.

وتتلمذ على يديه الشيخ سلمان الطوالي ويمكن الرجوع إلى سيرته في طبقّات ود ضيّف الله والشيخ محمّد ود دوا البوادري والشيخ محمّد عبد الدائم الشيخابي بأرض الهدندوة والمقبور

65- المصدر نفسه.

بشرق السودان وولده محيي الدين دفين أتبرة ومساجده الآن يشرق السودان في مناطق كثيرة منها على سبيل المثال مسجد الشيخ محمد ثمرة أبوفاطمة بأدويب بمنطقة جبال محمد محمود على بعد ثماني ساعات من كسلا بالعربة وفي جبال هيا وأدروت وخور أبوثمرة في بلدة تنيبرش وخور بركة وغيرها [66]

معاصروه

بعض من عاصرهم الشيخ محمّد الهميّم من الشيوخ منهم على سبيل المثال لا الحصر الشيخ إدريس ود الأرباب ابن خالته بالعيلفون والشيخ عجيب المانجلك ابن خالته كذلك والشيخ حمد أب عصا ابن خالته والشيخ شرف الدين راجل انقارى ابن خالته والشيخ عبد الله الأغبش ابن خالته والشيخ محمّد سوار الذهب ابن خالته فكلهم أبناء بنات الشريف حمد أبو دنانة جدهم الحسني نسباً الشاذلي طريقاً.

ومنهم الشيخ شاع الدين ود التويم الشكري والقاضي دشين والشيخ عبد الله العركي والشيخ محمّد بانقا الضرير أب يعقوب وغيرهم كثير من أهل التقوى والصلاح الذين حملوا سوياً راية لا إله إلا الله ونشروا الطريقة والدين في ربوع السودان .

66- موسوعة أهل الذكر في السودان. الخرطوم- مطابع السودان للعملة 2004-، ص 374.

أهم مراكز الصادقاب

لمشايخ القادريّة الصادقاب، منذ التأسيس الأول لهذا البيت القادري الكبير على يد الشيخ محمّد الهميّم ود عبد الصادق، حضورٌ فاعل وممتد في الحياة الدينية والروحية والاجتماعية والثقافية في السودان. فقد شكّلت المسايد والخلاوي التي أُقيمت تحت رايتهم مناراتٍ للهداية ومراكزَ لتعليم القرآن الكريم وعلوم الشريعة، ومجالسَ للذكر والتربية والسلوك، حيث تخرّج فيها آلاف الطلاب والمريدين عبر الأجيال. ولم يقتصر دورها على الجانب التعبدي فحسب، بل أسهمت كذلك في ترسيخ قيم التكافل الاجتماعي، وإصلاح ذات البين، وإيواء المحتاجين وعابري السبيل، فضلاً عن دورها الأدبي في حفظ التراث الشفاهي من المدائح والقصائد الصوفيّةالتي تُعد جزءًا أصيلاً من الهوية الثقافية السودانية.

كما أدّت هذه المراكز دورًا مهمًا في توطيد الاستقرار المجتمعي، خاصة في المناطق الريفية، حيث كانت تمثل مرجعية دينية وأخلاقية يلجأ إليها الناس في شؤونهم اليومية، وتُسهم في نشر التسامح والاعتدال. وقد امتد تأثير الصادقاب إلى مساحات واسعة من السودان عبر شبكة من السجادات والمسايد التي حافظت على نهج الطريقة القادريّةفي التربية والإرشاد، وربطت

بين العلم والعمل، وبين الظاهر والباطن في توازن دقيق يعكس روح التصوف السني.

ومن أشهر هذه المراكز نذكر: مسيد البنية الصادقاب بالفاو، الذي يُعد مركز الخلافة وملتقى المريدين، ومسيد جبال الفاو (بقعة الصادقاب) بما يحمله من رمزية تاريخية وروحية، ومسيد السوكي الذي مثّل أحد أوائل مراكز الانتشار، إضافة إلى مسيد الهلالية الذي أصبح من أكبر المراكز خارج منطقة القضارف، إلى جانب عشرات السجادات الأخرى المنتشرة في أنحاء السودان، والتي ما تزال تؤدي رسالتها في خدمة الدين والمجتمع حتى يومنا هذا[67].

المندرة

شرق رفاعة وبها ضريح الشيخ محمّد الهميّم وولده الشيخ على النيل وحفيده الشيخ الجنيد راعي البقر وضريح ولده الشيخ حمد الحار بجوار ضريحه وضريح حفيدة الشيخ الشريف بن الشيخ الجنيد ومقبور معه أولاده الشيخ نور الدين الفيالي والشيخ الصافي والشيخ مصطفى وأم حقين بنته.

67- موسوعة أهل الذكر في السودان. مصدر سابق.

مسجد السوكي الصادقاب

شرق الفاو على بعد ثمانين كيلو متراً منها أسسه الشيخ أحمد البدوي بعد أن انتقل والده الشيخ الطيب الشيخ الضو إلى البنية الصادقاب إذ إن الشيخ الطيب، كان مسجده الأول وسط جبال القاو بالسوكي وأمر ابنه الشيخ أحمد بتأسيس مسجده الموجود حالياً بالسوكي الصادقاب.

البنية الصادقاب

وسط جبال الفاو على بعد عشرة كيلومترات من الفاو بها مقر الخلاقة حاليا وأسسها الشيخ الطيب بن الشيخ الضو ومقبور بها ومعه الشيخ على المرين والشيخ حمد الشيخ طه والشيخ أحمد البدوي والشيخ الضو الشيخ على المرين وغيرهم.

الهلالية

مسجد الشيخ الطيب ود المرين وخليفته الحالي الشيخ البدوي.

كما أسس الصادقاب مساجد هي مسجد المحكرة ، مسجد أم خنجر شمال القضارف ، مسجد أم دمور ، بيلا ، خشم القربة ، حلفا الجديدة القرية ١٨ ، الرهد القرية ١٨ ، مارنجان عووضة ، كسلا ، حلة العاقب، أم شجرة ، الرواشدة ، الشواك ، الصباغ

، الشيخ الطائف بانت ، رفاعة ، القلابات، كجرة بعصار ، القرية ١٦ بالرهد ، البوادرة . دلوت، حفيرة ، الحرقة ، صقر ، القضارف ، القويسي[68].

وفاة الشيخ محمّد الهميّم ود عبد الصادق

توفي الشيخ محمّد الهميّم ود عبد الصادق عن مائة وعشرين عاماً قضاها في نشر الدين وتسليك المريدين والنهوض بهم إلى رحاب الحق عز وجل، ولقد كان في حياته قبلة القاصدين من أدنى الأرض وأقصاها لطلب الهداية والارشاد وحمل بعده أولاده الراية التي لم تسقط قط وقبر بالمندرة بمسجده يزوره الاحباب من كل الأجناس ولقد كان محل تقدير واحترام من كل المشايخ الذين عاصروه واللاحقين ووصفوه بكل صفات المعرفة وعلو المكانة ولقد وصفه الشيخ هجو ود الماصع خليفة الشيخ التوم ود بانقا بأن قال والله إن الشيخ محمّد الهميّم عتيق الله ومثله في الأولياء كمثل جده رسول الله في الأنبياء ، فما أعظمه من وصف من رجل عارف بالله إذ إنه لا يعرف قدر الرجال إلا الرجال وللدلالة على علو قسمته عند ربه واصطفائه له وصف شيخه الشيخ تاج الدين البهاري واستشهد ببيتين لأحد شعرائهم إذ قال في وصف حالهم :

68- المصدر نفسه، ص- 374.

النـــور المحمّدي بجسمه عم وبذكر الجيل خلطوا اللحم والدم

حرموها النفوس من الطعام والشم خاليات القلوب من الحساب والهم

الهميّم المُفترى عليه

شابٌ مقبلٌ على الحياة شرى نفسه بخياره سلوك طريق القوم!! فأضحى الخليفة الأول للطريقة القادريّة بعد رجوع شيخه ومربيه ومرشده الشيخ تاج الدين البهاري للحجاز.

أول من سلك طريق القوم القادري في السودان، فعندما اجتمعت الناس عند الشيخ تاج الدين البهاري ليسلكهم طريق الصوفيّة"قال للناس اسلك وارشد واذبح وتموتوا على الإيمان"، عندها تفرق الناس كهولاً وشيوخاً من حوله، حينذاك تقدم شابٌ يافعٌ، وهو محمّد ولد عبد الصادق فتوضأ وصلى ركعتين، وأدخله القطيع، وسال الدم من القطيع وظنوا انه ذبحه... ثم تلاه الشيخ بان النقا. وبعد ذلك خرج الرجلين سالمين وامر كل واحد ان يأكل لحم كبشه وطوى له فيه سرا. وقال هذين الولدين يحْيُوا البلد. (الطبقّات108).

وقال شيخه فيه: التلميذ بيكوس للشيخ، الشيخ ما بيطلب التلميذ. أنا جيتْ من بغداد لأجل هذا الولد. (الطبقّات316)[69].

69- عمر محمّد الأمين. وقفة مع المرويات المؤسسة للشخصية السودانية في كتاب

أوصى الشيخ تاج الدين البهاري فقراه بحفظ مقام ومنزلة الشيخ محمّد الهميّم تماما كحالهم معه هو شيخهم ومربيهم، وذلك بعد أن مكث في التربية والإرشاد مع شيخه سبع سنين. "ويحكى أن الشيخ تاج الدين رضى الله عنه لما أراد السفر إلى الحجاز جمع فقرأه وقال لهم انا جيت من بغداد لأجل هذا الولد مثل ما ابتَعايْنُو لىْ عاينوا له.....

وانقاد له حيران شيخه مثل شيخهم، فإن الشيخ بان النقا من السنة إلى السنة يجي لزيارته، وإذا دخل في سنار لشفاعة يقوم معهم. والشيخ عجيب اول ما يدخل وعر المندرة يمنع من ضرب النُّقارة فإذا دخل عليه يخلع ثياب الملك ويلبس جبة تاج الدين.. "(ص321).

توضح قصة "حمل الدليب على الفيّلة" (الترجمة 187) مدى أدبه وحسن إرشاده وإعداده من قبل شيخه الشيخ تاج الدين البهاري، ".. فلما وصلوا المنُدرة الشيخ ما رضى اظهار السر قال لهم: ما ترسلوا لي اجيب لكم الزوّامل"، لم يرض بكشف السر، ففي عُرُف وتربية وتنشئة القوم عدم الركون لإظهار الكرامات بل والعمل على كتمانها وليس المباهاة بها مخافة أن تكون استدراجاً، وكذلك هضماً للنفس ورعوناتها ونفوراً من

الطبقّات، مصدر سابق.

الرياء والكبر الذي تحدثه مثل هذه الوقائع والكرامات. وبالرغم من ذلك اشتهر بلقب ”ود عبد الصادق أدّآب الفيّلة[70]“.

وقفة مع المرويّات في ترجمة الشّيخ محمّد الهميّم

إن المآخذ التي رويّت وتم تعليلها تحت لافتة الملامتية هي:

- نسْوانه يَلْحقَن التسعين،
- وغصب خادما هُول ناس أربجي اسمها زريقة حسبها سريّة،
- جمع بين الأختين بنات الشيخ بان النقا أبو يعقوب اثنين كلتوم وخادم الله،
- وتزوج بنات أبو نَدوده الاثنين في رفاعة،
- خَمسّ وسدَّسْ وسَبَعْ.
- فسخ جلد القاضي الذي قام بفسخ الزواج وبيان بطلانه (وانفسخ جلده مثل قميص الدبيبة).

والسمة الجامعة لتلك المآخذ أنها كلها تدور حول المرأة!!!

سنحاول استعراض هذه الروايات لمعرفة مدى صدقها وصحتها

70- المصدر نفسه

والتعقيب عليها:

- لقد (وَهِم) المؤلف في الأنساب بإضافة السليلتين (كلتوم وخادم الله – إن وجدتا؟) لذرية الشيخ بان النقا الضرير!!، فالثابت المشهور والمتداول حسب شجرة النسب عند أحفاد الشيخ بان النقا الضرير أن له كريمتين فقط، وهما "بتول الغبشا" والدة الشيخ هجو ابو قرن (الترجمة 262) و"زينب نقاوة" والدة الشيخ عبد الرازق أبو قرون (الترجمة 188).

- و(وَهِم) ثانياً بقوله إن الشيخ محمّد الهميّم قد جمع بين بنتي بان النقا الضرير، فالشيخين الجللين لم تربط بينهما أي علاقة مصاهرة إنما أخوة الطريق!

- و(وَهِم) ثالثاً بتطرقه لحكم القاضي وهو فسخ النكاح، والحكم الشرعي في هذه القضية ليس فسخ الزواج، إذ أن زواج الأخت الثانية فوق الأولى باطل أصلاً والحكم هو إقامة حد الزنا في الشيخ محمّد الهميّم[71].

- والسؤال هو كيف خفي على الشيخين المرشدين بمنزلتهما العلمية حرمة هذا الجمع؟

71- المصدر نفسه

- وكيف ارتضى الشيخ بان النقا أن يجمع بنتيّه في عصمة رجل واحد؟؟

- وكيف رضي الشيخ الهميّم أن يجمع تحت عصمته بين أختين؟؟

- وكيف سكت الشيخ إدريس على ذلك وهو ممن جمعوا بين الفقه والتصوف؟؟!!

- ذكر أن القاضي دشين ''سمى قاضي العدالة لانه فسخ نكاح الشيخ محمّد الهميّم. وأن الشيخ دعا عليه بقوله فسخ الله جلدك، فيقال أنه مرض مرضا شديدا حتى تفسخ جلده، وما رجع من امره للشيخ الهميّم وما زاده ذلك الا يقينا، فمن اجل هذا ''سمى قاضي العدالة'' (الطبقّات212)، وإذا حدث ذلك فإنها تكون للشيخ الهميّم وليس عليه، ولجزم الناس بأن القاضي أصابته دعوة الشيخ وليس ثمة من يدعوه عادلاً بعدها.

- وأما بالنسبة لرواية زواج بنات أبو ندودة الاثنين في رفاعة، فإن الهامش 17 في صفحة 212 نقل عن عبد العزيز عبد المجيد قوله'' ولكن تتمة لم ترد في الطبقّاتوانما على ألسنة الناس. فانه يقال ان النبي ظهر للقاضي

دشين في المنام وقال له ان حقيقة الأختين اللتين تزوج بهما الهميّم هي ان الأختين كانتا في الواقع من امين مختلفتين وقد حملت احدى هاتين الامين بواحدة من الأختين سفاحا وإذا فلا علاقة بين هاتين الزوجتين.'' وهذا التعليل إن وجد فهو ليس أقل سواء من رواية زواجهما!! فقد قذف الأم حين رام التعليل للعثور على مخرج بنفي العلاقة، وما وجد منفذا بل أضاف ما هو أسوأ وهو القذف!! ويبقى الحكم فالولد للفراش وللعاهر الحجر!!

- وتروى قصة (فسخ جلد القاضي دشين) وكأنها كرامة للشيخ الهميّم! وهذا لا يستقيم مع المعنى الاصطلاحي للكرامة، فقد ذكر الخليفة الدكتور الشيخ أبو عاقلة الترابي في مؤلفه حمد النحلان ود الترابي ص138 قوله:'' والكرامة في معناها الاصطلاحي: هي أمر خارق للعادة يجريها الله تعالى على يد عبد ظاهر الصلاح، ومتبع لشريعة نبي لم تنسخ وغير مقرونة بالتحدي ودعوى النبوة فهي علامة وإشارة على صلاح الأولياء وعلو قدرهم، وهي الجزاء الدنيوي لهم على تقواهم وطاعتهم وإخلاصهم لله تعالى. قال الشيخ إبراهيم البيجوري في شرح الجوهرة:

واثبتن للأوليا الكرامة*** ومن نفاها فانبذن كلامه

أي اعتقد جواز وقوع الكرامة..) فوقوع الكرامة مشروط باتباع شريعة نبي لم تنسخ، وغير مقرونة بالتحدي. والمشهد كما جاء في الرواية أمام جامع أربجي كان يشير إلى عدم التقيد واتباع شريعة النبي صلى الله عليه وسلم ومقرونة بالتحدي ما ينفي عنها صفة الكرامة!!!

وهكذا يتضح أن هذه المرويّات والحكايات والسماعيات لا أساس لها من الحقيقة أو الصدق ـ أياً كان مصدرها؛ مغرضون متحاملون أو محبون مشايعون للشيخ وللمنهج بصورة عامة ـ وتبقى مجرد مرويّات ومحكيّات وسرديّات شعبية فلكلورية لا غير!![72]

إن المفتريات التي ألصقت بشخص الشيخ الهميّم وجب الوقوف على قصصها مع التحري الدقيق الذي يكشف الوجوه المختلفة، إن ما ذُكر من قصَصٍ مفترى اثقل كأهل الرجل بكثرة مُل ماتٍ جسيمة تنوء منها العصُبة اؤلي القوة، هذا الضرب من القصص مع القناعة بإفترائه إلا إننا رأينا وضعه في كفتي الميزان عدلا وتجريح اً، لقد أوجبت دقة التحري عن الشيخ الهميّم عرض حياته منذ أن أخذ بيعة الطريقة على الشيخ البهاري، ومن

72- المصدر نفسه

تلك اللحظات فقد سلك درب الإستقامة والزهد في الحياة، هذا النضوج الفطري في شخصه الكريم وإقباله على طريق الذين هدى الله، فقد كلفه ث قَلَ مشيخة الطريقة، وهو فيما يبدو لم يتجاوز الاثنين والثلاثين سنة، ثم بعد سفر شيخه البهاري أعتكف سبعة سنوات، وقد اعطته هذه التجربة الروحية معرفة كافية بآداب السلوك والتعامل مع الناس، ثم رحل إلى المندرة حيث أمره الشيخ البهاري بالاستقرار فيها وقد فتح الله عليه في ميدان الدعوة إلى الله وتدفق إلى رحاب مسيد خلواته الناس يطلبون الإرشاد والسلوك. هذه هي القراءة الصحيحة لحياة الشيخ الهميّم الذي تدفق إلى ساحته الناس من كل فج، حتى أن الناس في ساحة مسيد المندرة يتحدثون عن الأسواق والسلع الواردة من مختلف البلدان، إن الذين يعرفون هذه الحقائق يستغربون ويدافعون ول كن الأمر تناقلته العامة دون المعرفة بالميزان ومعرفة صنوج الموازين الصحيحة من السقيمة. هذه الأحوال الملبدة بالغيوم تذكر تار ةً تحت ظلال المدح والكرامة، وتار ةً تذكر في قائمة القدح والخروج عن الشرعيات. نذكر عن هذا ما ورد في طبقّات ود ضيّف الله فقال: إن عدد زوجاته يلحقن التسعين وغصب خادما هول ناس أربجي إسمها زريق حبسها سرية وتزوج بنات الشيخ بان نقا أبو يعقوب الإثنين كلتوم وخادم الله وقال له السيد ما يمنعوه خدمه وجمع بين

بنات أبي ندودة في رفاعة الإثنين ثم قال: إنه تزوج إمرأة في أتبرة جميلة إسمها حليمة بنت الملكة وسافر من المندرة للعرس بها، تجنب في وجهه إثنا عشر جنيبه والسراري سافرن ومعه خلق كثير .) 1 (ثم قال: وأعلم أن الناس أنكرت عليه إنكارا شديداً. وأنكر عليه القاضي دشين قاضي أربجي جاء الشيخ محمّد لصلاة الجمعة في أربجي فلما خرج من الجامع ركب على جواده فمسك القاضي في عنان الفرس وقال له: يا شيخ محمّد خمست وسدست وعشرت حتى جمعت الآن بين الأختين تخالف كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم)[73]

الإلمام بمتفرقات القصص

إن ما يروى عن الشيخ الهميّم لابد فيه من محاورة ساخنة تبين الصحيح من السقيم الوارد في الروايات المختلفة، لأن القصص الواردة في الطبقّاتعن الشيخ الهميّم فيه القدح والمدح، وهذا التخاصم والخصام يجعل الرجل شخصيتين متباينتين، شخصية لا تعرف الدين وشرعياته ومحرمته، وشخصية آخرى وهو من كبار الأولياء الصالحين، فكيف لنا مع هذا التباين والاختلاف التسليم بما جاء عنه في الطبقّات، إننا إن سل منا بهذه الوقائع

73- محمّد الحسن أبوقرون. القادريّةفي السودان، مصدر سابق، ص- 401.

نكون سلمنا بكل إتهامات ألصقت برجال التصوف، فإن ثبت مثل قول الشيخ الهميّم للقاضي دشين: الرسول(صلى الله عليه وسلم) أذن لي بذلك والشيخ إدريس يعلم بهذا. فسأل القاضي الشيخ إدريس: هذا الكلام صحيح؟ فقال له: خل بينه وبين ربه، قال له: ما بدور هدايتك بدور شهادتك. قال له: البعْتق له معْتوق يرجع في عتقه؟ الرجل هذا الله عتقه. فقال له القاضي: جميع هذه الأنكحة فسختها ودعا عليه وقال له: الله يفسخ جلدك، وأن القاضي مرض وأنفسخ جلده مثل قميص الدبيبة. وشطح الشيخ شطحًا مع كونه أميا لم يقرأ إلا إلى (إذا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ)

فقال شعرا:

فإن كنت يا قاضي قرأت مذاهبا فلم تدري يا قاضي رموز مذهبنا

فمذهبكم نصلح به بعض ديننا ومذهبنا يعجم عليكم إذا قلنا

قطعنا البحار الزاخرات وراءنا فلم يدر الف قهاء أين توجهنا

حالنا بواد عندنا اسمه الفضا فضاق بنا الوادي ونحن ما ضقنا

يقول ود ضيّف الله فالناظر في هذا الشطح العظيم الذي لم يقع

إلا من الجيلي والبدوي والرفاعي قد وقع من رجل أمي لم يقرأ شيئا إلا من الناس إلى سورة (إذا زلزلت).

قبل الحديث عن إنفساخ جلد قاضي العدالة بسبب دعوة الشيخ الهميّم نستعمل مقص التشريح في نسبة هذه الأبيات إلى الشيخ ود عبد الصادق ونخص البيت الثالث من هذه الأبيات وهو:

قطعنا البحار الزاخرات وراءنا   فلم يدر الفقهاء أين توجهنا

وورد نفس البيت عن الشيخ محيي الدين مع تغير طفيف بين إبدال كلمة الناس بالفقهاء:

تركنا البحار الزاخرات وراءنا   فلم يدر الناس أين توجهنا

التقصي يرى أن هذه الأبيات ليس من قول الشيخ محمّد الهميّم، والإثبات لها أنها من قوله إثبات لأعراف زيجات غير شرعية ألصقت بشخصه الكريم، وهذه الزيجات المختلقة إننا لم نسميها زيجات أبدا لأنها لم تحصل أبدا في حياة الشيخ عبدالصادق، حتى نبرر لها بهذا الشطح، إن النظر في أبيات الشطح يتطلب النسخة الأصلية لطبقّاتود ضيّف الله، التي تعدد ناسخوها. نسخة البرياب ورمزها «ب» نسخة الشيخ أحمد إبراهيم علي بري ورمزها «ت» نسخة محيي الدين خليفة الشيخ

خوجلي ورمزها «خ» مخطوط الخليفة أحمد ابن الخليفة الأمين خليفة الشيخ خوجلي ورمزها «د» نسخة الخليفة حسب الرسول ورمزها «ح». والنسخة الأخيرة يروى إنها نقلت من نسخة في زمن الشيخ محمّد بدرى وقيل إنها من نسخة البرياب. وتذكر في هذه النسخة كثرة أضافة الصلاة على النبي (صلى الله عليه وسلم) عند ذكر إسمه، كما تكُثر من إستعمال رضي الله عنه وتنفرد بذكر كلمة) وتوفي(قبل) ودفن بموضع كذا (وتعمد هذه النسخة إلى كتابة بعض التعابير الدارجة بلغة فصحى، كما تضيّف بعض التعليقات والتفاصيل مما لا يوجد في النسخ الأخرى، مثل قولهم في صفحة 37 من النسخة (ح) ومن يوم مماته إلى تأريخ عامنا هذا سنة ست وثلاثون وألف وثلاثمائة بلغ مائتين وثلاثة وسبعين عاما والله تعالى أعلم.[74]

كما يضيّف خبرا طويلا (ص 288) وكل هذه التنقيحات والزيادات والشروح ليست من جهد ناسخ عادي يقول الدكتور يوسف فضل: إنها من قلم عالم جليل الشيخ حسب الرسول) ، ولكن الأرجح عندنا غير ما ذكر الدكتور يوسف فضل، بل الذي كان يكتب ويؤرخ في حياة الخليفة حسب الرسول هو الشيخ صالح تاج الدين، هذا الأصوب والنسخة لم تكن

74- المصدر نفسه، ص- 406.

في زمن الشيخ محمّد بدر كما ذكر، بل إنها في زمن الخليفة حسب الرسول. المحققون لطبقّاتودضيّف الله أثبتوا أن النسخة الخطية الأصلية مفقودة، وأن الموجود الآن قد تم نقله وطبع من نسخ متعددة، وهذا التعدد الإجتهادي قد يكون هو الذي أدخل كثيرا من الروايات الموضوعة في حياة الشيخ الهميّم، سواء كان من ذلك الشطح أو انفساخ جسم قاضي العدالة، وهذا الاختلاف الذي ذكر في تعدد النسخ وهو أمر يجعلنا نراجع كل ما ذكر عن الشيخ ود عبد الصادق والقاضي دشين الرجلان أصيبا كل واحد منهما بمفتريات تقصم الظهر، وإذا حققنا في وقائعها نجد أن نقلا واختراعا سيئا قد تم بعد ضياع النسخة الأصلية، هذا الضرب القاسي من التجريح لم يسلم منه العلماء والصالحين فقد أصاب عالما كبيرا من علماء الفقه في البلاد هو الشيخ إدريس ود الأرباب رحمه الله، فشكا ذلك إلى رصيفه الشيخ محمّد سوار الذهب فكتب إليه يسليه بأبيات منها:

والله لو كان بين الناس جبريلا لابد فيه من قال ومن قيل

قالوا في الله اضعافا مضاعفة تتلى إذا رتل القرآن ترتيل

انظر كلامهم في الله خالقهم فكيف فينا إذا قيل ما قيل لقد ذكر عن الشيخ إدريس ود الأرباب: إنه قال للقاضي دُشين الرجل هذا عتقه الله، أو قال الشيخ محمّد عريس الحور العين،

قد يكون هذا المدح والثناء في غير الواقعة التي كانت بين الهميّم والقاضي دشين، فإن ع دها واضعوها تبريرا لما ألصق بالشيخ الهميّم فهذا خطأ كبير، لأن الدفاع والتبرير كان لأمر لم يحصل ولم يوجد، نعم نقر ونعترف أن الكرامة تجري من الله سابق بشرى، ولكن وجب علينا أن نذكرها في مكانها اللائق بها، إن ما كان من مفتريات ألصقت بالشيخ ود عبد الصادق، وكذلك مرض وفسخ جسم قاضي العدالة ونقول أنه من باب الكرامات، بل الذي يجب دفع هذا عن الرجلين، هذا هو الصحيح الذي أمرنا به **}وَلَوْلاَ دَفْعُ الله الناس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأرض}**)البقرة. (252)

إذا كان الأصل الذي يعتمد عليه من طبقّاتود ضيّف الله وهي نسخة البرياب وقد ضاعت من خليفة البرياب في القطار، هذا يوصلنا إلى حقيقة إن النسخ بعدها لعبت فيها الاقلام بما يبدو لها، وإعتقادنا في الشيخ ود ضيّف الله وهو رجل من كبار العلماء هذا يجعلنا نبعد عن ساحته هذه الروايات المتداخلة بين الخروج من الشريعة والكرامة، وإن الحديث عن حياة رجل أو رجال يوجب علينا امتلاك المعلومة التاريخية الصحيحة، وهذه المعلومة قد ضاعت في القطار من خليفة البرياب. إننا لو أخذنا بما قيل ويروى من النسخ المطعون في صحتها، نكون سلمنا بأمور خطيرة تطعن في نظام الدولة الإسلامية التي عين

لها الشيخ عجيب المانجلك أربعين قاضيا من خيرة العلماء، والطعن يكون في نقاط أهمها:

الشكل الإجرائي الذي تمت به المحاكمة العفوية من القاضي دشين في أربجي إن كانت هناك فعلا قضية أنكحة فاسدة، حيث تقع أربجي تحت إدارة مشيخة الشيخ عجيب وقد عرفت آنذاك بنظام قضائي مميزٍ، وجب أن نذكر النظام الإجرائي في المحاكم والكيفية التي يتم بها الإثبات والمحاكمة في قضية ما، قد عين الشيخ عجيب أربعين قاضيا نذكر منهم: القاضي الشيخ عبد الله بن دفع الله العركي، القاضي دشين، القاضي عبد الرحمن بن مشيخ النويري، القاضي علي ود عشيب، القاضي حمد النجيض، القاضي المصري محمّد القناوي، القاضي بقدوش بن سرور، القاضي يعقوب بن بان النقا، القاضي ضيّف الله، القاضي محمّد بن ضيّف الله، القاضي دفع الله بن ضيّف الله، القاضي عبد العزيز الشريف محمّد المهدي، القاضي بلال محمّد الأزرق، القاضي محمّد البنية، القاضي مالك حمدتو، القاضي حلالي محمّد عيسى سوار الذهب. إن صور هذه المحاكم واجراء الاحكام القضائية يقودنا إلى حكم القاضي دشين إن كان هناك قضية حقيقة يروى أنه إلتقى بالشيخ الهميّم بمسجد أربجي وأمسك بعنان فرسه وقال له خمست وسدست، مع شيوع هذه الحادثة والدولة بها أكثر من أربعين قاضيا والأدهى

والأَمَرُ في القضية من بين هؤلاء القاضي الشيخ يعقوب بن الشيخ بانقا الذي وردت الرواية أن الأختين المذكورات بنات الشيخ بان النقا اخواته، فهل يحصل مثل هذا الحدث المؤسف مع وجود الشيخ يعقوب الذي كان قاضيا للنظر في القضايا والمخالفات العادية والشرعية، لا يمكن أن يتصور حصول هذا أبدا و الشيخ يعقوب على كرسي القضاء حتى يستدرك ذلك القاضي دشين[75].

وفي سياق دراسته التي أعدّها الدكتور غازي صلاح الدين العتباني والمنشورة في مركز تأسيس للدراسات والنشر «صورة الزعيم الخارق ونفوذها على الحياة العامة السودانية: قراءة سريالية لعالم ود ضيّف الله»، تناول الباحث حادثة الشيخ الهميّم والقاضي دشين، ولا سيما قوله له: «وجمعت بين الأختين»، حيث علّق الدكتور غازي صلاح الدين على هذه الواقعة بقوله: «أود أن أوضح رأيي في هذه الحالة وحدها، وهو أن المأخذ التي ذكرها القاضي دشين في معرض احتجاجه على الشيخ الهميّم، بعهدة الاحتمال في مجتمع محافظ ومتشدد في مسألة الأنساب ومتشرب بالقيم الدينية، كما كان وما يزال مجتمع السودان، والتأويلات للخلاف بين الرجلين في تلك

75- المصدر نفسه، ص- 417.

الحادثة عديدة مثل أن الحقائق التي بنى عليها القاضي دشين حكمه لم تكن صحيحة. فالأختان بنات ندودة اللتان أشار إليهما ود ضيّف الله ربما لم تكونا في عصمة الشيخ محمّد الهميّم في وقت واحد، أو ربما أنما لم تكونا أختين في الحقيقة وإنما تربتا في بيت واحد أو أن النساء الست أو السبع اللائي أشار إليهن القاضي دشين بقوله سدست وسبعت لم يكن كلهن في عصمة الشيخ محمّد الهميّم في وقت واحد[76] .

يواصل الدكتور غازي صلاح الدين ليقول: «إن ما جرى ووصف به الشيخ الهميّم إن كان صحيحاً، فهو أمر خطير يجعل كل أؤلئك القضاة والعلماء في قفص الإتهام، وتكون قضيتهم أكبر من قضية الشيخ الهميّم، ومن الأمر هو أن الشيخ عجيب رجل المملكة الذي يحاسب القضاة على كل تقصير، فإنه يزور الشيخ الهميّم في المندرة بحاشية مملكته، وإذا اقترب من المندرة لبس جبة الفقراء وتأدب بآدبهم مع الشيخ الهميّم، الموازنة العلمية تجعل قضية مثل هذه القضية مستحيلة، ولنا في هذا إما أن نصدق ما ورد عن الشيخ الهميّم ونأخذه بعلاته

76- غازي صلاح الدين العتباني. صورة الزعيم الخارق ونفوذها على الحياة العامة السودانية: قراءة سريالية لعالم ود ضيّف الله. https://www.ta-sees.org/wp-content/uploads/2023/08/%D8%B5%D9%88%D8%B1%D8%A9-

أو نرفضه، فإن سلمنا به نكون سلمنا بواقع خطير وهو طعن في المملكة المتسمة بالإسلام، فقد علم أن العلماء في تلك الحقبة كانوا يتناظرون في أبسط الأشياء قياما بواجب الشرع، ويحضر في المناظرة الشيخ عجيب نفسه، يسوقنا التدليل على قوة العلماء والشيوخ مناظرة الشيخ إدريس ود الأرباب والشريف عبد الوهاب في حكم الدخان، ويبدو أن هذه المناظرة كانت بطلب من الشيخ عجيب المانجلك ووصل الأمر فيها إلى علماء الأزهر. لقد كانت المملكة ومافيها من كثرة العلماء والشيوخ ما يجعل الإستباح لقضية من قضايا الشرع مستحيلةً، ورواية القصة عن الشيخ الهميّم كان افتتاحها: إنكر الناس عليه، وهل يصح بعد زيوع هذا الإنكار من العامة، أن الشيخ عجيب المانجلك الذي عُرف بالتقوى والصلاح واجتهاده وحزمه في أمور تطبيق الشريعة يزور الشيخ الهميّم متأدبا حافظا لمكانته، ولا نحسب أبدا الشيخ عجيب رجل الدولة الذي عرف بالحزم تغاضى عن مخالفة قضية من أكبر قضايا الشرع. والطعن في عناصر الرواية يذهب بنا إلى الطعن في شيخين جليلين هما عنصر كبير ومهم الشيخ بانقا الضرير وابنه القاضي يعقوب ، والأمر بالنسبة لهما بلية، فالشيخ وهو فقيه كبير لا يجهل الاحكام الشرعية والعرُف السليم يزوج بناتاه سواء بعقد أو بغير عقد للشيخ الهميّم، والشيخ يعقوب وهو تلميذ الشيخ عبد الرحمن بن جابر

ومن القضاة الأربعين كما ذكرنا، الرضى منه بهذا بلية وطعن في دينه وفي موقعه القضائي! إن كان هذا جرى حقيقة ألم يكن الأجدر تفاديه قبل وقوعه. والأمر وغرابته تتناوله شجرة نسب أبناء وذرية الشيخ بانقا لم تعَرف له بنتين بهذين الاسمين: خادم الله وكلتوم. إنما بنتاه هما (بتول الغبشا) والدة الشيخ هجو، (ونقاوة) والدة الشيخ عبدالرازق أبوقرون).[77]

قال الشريف حماد زين العابدين: إن الشيخ الهميّم لم يتزوج واحدة من بنات الشيخ بانقا، فضلا عن الجمع بين الأختين. وقال الشيخ موسى بن حماد: (إن أحفاد بانقا معروفون لدى الجميع، إلا ما ذكر في طبقّاتود ضيّف الله).

من النظر في بعض فقرات القصة مثل (وأعلم أن الناس أنكرت عليه إنكارا شديدا) وهنا وقفة فكيف يحصل مثل هذا الحس الشعبي بالإنكار والقضاة في حالة غيبة تامة عن ما أنكره الناس، وقد كانت متابعة العلماء للامور في أقل من هذا بكثير مثل شرب الدخان ويتناظرون فيه إلى أن يصل ذلك إلى ساحة الأزهر، ويتناظر فيه أيضا الشيخان علي الأجهوري شيخ علماء المالكية في الأزهر ورصيفه إبراهيم اللقاني صاحب عقيدة الجوهرة الشهيرة، فإن قيل بوقوع الحدث الغريب من

77- المصدر نفسه، 419.

الشيخ الهميّم بم نفسر وجود الجهاز القضائي القائم على أحوال الدولة، وانصراف العلماء عن أمر مهم إلى التحاور والمناظرة في قضية طفيفة جدا وهي قضية شرب الدخان. هذا كله يعطي انطباعا بوجود كثرة الخصوم للشيخ الهميّم لو فرضنا أن القاضي دشين أصابته دعوة الشيخ الهميّم بإنفساخ جسده أن جريان هذه الخارقة تكون للشيخ الهميّم، ونحن في هذه القصة نرى نسيجا غريبا نسُج بحبكة لتؤدي غرض التشويه في حياة الهميّم، إذا كان القاضي دشين وهو قاضي العدالة، وحكم في واقعة مخالفة للشرع، لا نتصور أبدا مرضه بما ذكر من فسخ جسمه، إن حصل هذا تقلب كفتي الميزان، يكون الحق باطلا والباطل حقاً، إن الل ه سبحانه وتعالى واستجابة دعوة مَن دعاه لا تقصم أبدا ظهر الذين ينصرونه وينصرون شرعه، وإذا رأى الناس أن القاضي أصابته دعوة الشيخ، ليس بعد ذلك ثمة من يدعوه قاضي العدالة التي شهر بها. وستتعاظم المسألة إذا علمنا م ن أهم مُساندي القاضي دشين هو الشيخ فرح وقال فيه:

وين دشين قاضي العدالة المـا بميل للضلالة

نسله نعم السلالة الاوقدوا نار الرسالة

والشيخ فرح الذي مدح القاضي دشين بالعدالة، فإنه أخذ بيعة الطريق الصوفي على سلمان الطوالي تلميذ الشيخ الهميّم، وقد كان في بدء حياته يحمل الماء لأماكن الخمر فدعى له الشيخ الهميّم دعوة فصار من خيرة الصالحين الذين أعتقد فيه الشيخ فرح الصلاح وتتلمذ عليه الطريق. الدفاع عن الشيخ الهميّم المظلوم من كثرة الحاسدين أمر يقتضيه الواجب، وكذلك الدفاع عن القاضي دشين الذي يحمي شرع الله فرضا واجباً.

وفي ختام مرافعتنا نقول إن هذه الرواية لا يستقيم لها عود على الإطلاق. فلا يعقل أن يكون الشيخ الهميّم في شبابه متدينا زاهدا ورعا قدم نفسه للذبح من أجل الموت على الإيمان، وينقطع في خلوته في دلوت سبع سنين للعبادة والذكر وخدمة المحتاجين، وتمتد به الأيام على هذا النهج ثم في عمر الشيخوخة والزهد القهقرى تثور رغبته إلى الملذات بصورة غير مشروعة، ولا تخطر ببال فيتزوج من النساء ما يفوق الحصر، ولا يفرق في ذلك بين الحرام والحلال !! .

ولا نتصور أبدا رجلا مثل القاضي دشين يخدم شرع الله ثم يكون عبرة للناظرين بفسخ جسمه. إن الدفاع عن الشيخ الهميّم ضرورة يقتضيها البحث العلمي لإسقاط غثاء القول عن منهج التصوف وصالحي رجاله، وكل من يحاول الخوض

في هذا الميدان بحثا أو قراءةً وجب عليه التدقيق والوقوف على الحقائق[78].

الهميّم في الميزان

زامن الهميّم كثير من رجال العلم والتصوف المشهود لهم بالفضل والسعة العلمية، تتجلى هذه المعرفة في المناظرات التي كانت تدور بينهم في أبسط القضايا، مثل الجدل في الدخان) (إذا كانت أحاسيس هؤلاء الرجال نحو الدين في تلك الفترة في أبسط القضايا، فكيف نتصور منهم التقاضي عن حدث كبير، كثر فيه القيل والقال، وأنكرته العامة، ومن رجال تلك الفترة الشيخ إدريس ود الأرباب، والشيخ صغيرون، والشريف عبد الوهاب، والشيخ عبد الله العركي، والشيخ يعقوب بن بانقا، والشيخ دفع الله العركي والشيخ ف رح ود تكتوك، الذي أخذ السلوك الصوفي على تلميذ الهميّم (الشيخ سلمان الطوالي). مع علم الأول وأمية الثاني.[79]

وتدعونا المسألة أن نذكر مناظرة بين الشيخ إدريس ود الأرباب والشريف عبد الوهاب حيث استشهد الشيخ ادريس بالشيخ الهميّم والشيخ ود حسونة، والشريف عبد الوهاب لم يجرح شهادة

78- المصدر السابق- ص 423.

79- المصدر نفسه، ص 424.

الهميّم بتجريح، والجرح والتعديل أصل يعُول عليه العلماء في الأخ ذ والترك لرواية حديث. والشيخ عبد الله العركي هو رجل علمٍ أولاً. وقف مع علمه حين دعاه الشيخ البهاري لأخذ البيعة عليه، رفض ذلك في بداية الأمر، ثم هو قاضي المملكة مثل رصيفه القاضي دشين، فقد كان ينظر للشيخ الهميّم بالإجلال والاحترام، ويذهب لزيارته في المندرة قاطعا الأميال الطويلة. ولو كان صدر من الشيخ الهميّم ما ذكر من زواج باطل لا أخال أن الشيخ عبدالله يكون منه الإجلال والاحترام له، وكذلك الشيخ دفع الل هـ العركي وهو صاحب مدرسة علمية وسلوكية كبرى خرجت كثيرا من العلماء والصالحين يثني على الشيخ الهميّم بقوله: أولاد عبد الصادق وقعت لهم دعوة مستجابة مل كوا بها الدنيا». والشيخ عجيب المانجلك وهو رجل الدولة الإسلامية، فهو كله تجلة واحترام ا للشيخ الهميّم. مع إجلال هذا الجمع من الرجال للشيخ الهميّم، فكيف نفسر الحملة الشرسة التي قادها بعض الناس نحوه؟ فكل ما قيل في الهميّم رحم هـ الله تكذبه الآثار الفاضلة في المحافظة على روح الدين التي تركها باقية في ذريته، لو كانت هناك نحلة فاسدة في حياته لنبت زرعها بين أبنائه وأبناء طريقته، إلا أن ما تركه كان خير ا وفيرا عم البلاد وأضاء ظلمات الجهل بوقود نير القرآن في بقاع كثيرة، وانتظام الأوقات وإعمار المساجد بالمفروضات،

والجهر بكلمة التوحيد في الخلاوى والزوايا ومرتفعات الجبال، بلا ريب إن الشواهد العقلية تكذب وتنفي ما افتري به على الشيخ محمّد ود عبد الصادق.

ويسر البعض كثيرا أن ينظر إلى العظماء ويتمنى منهم وقوع عثرات، ليسعى في الإذاعة والتشهير بذلك. كلمة وجب أن تقال أن كل إنسان مهما بلغ من درجة الصلاح لا يمكن ان نصفه بالعصمة، وعلم ضرورة لا تكون العصمة إلا للأنبياء عليهم الصلوات، ول كن علينا في ختام هذه المرافعات والحديث عن التزكية أو التجريح لحال الإنسان، يجب أن نقدر مسئولية الكلمة التي تقال وتنشر.

نكرر ونقول إن كل ما قيل في الشيخ الهميّم وهي أكاذيب باطلة ومفتريات ظالمة، النظر في هذه القضية يدعو إلى الإنصاف، وأن تراجع بعي دا عن الهوى، مرجعية معروف ة بيقظة الضمير، وعفة اللسان، وعفة القلم، كل هذا لنحقق في نفوسنا القول الكريم: ﴿ **أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ**﴾ (الرحمن: ٨)[80]

شهادة الصادقاب

وصلني مقال مكتوب ممهور بقلم دفع الله محمّد دفع الله بتاريخ

80- المصدر نفسه، 426.

16/6/2016 وهو حفيد الشيخ محمّد الهميّم عبدالصادق يردّ فيه على رواية وردت في طبقّات ود ضيّف الله تزعم أن الشيخ محمّد الهميّم ود عبد الصادق جمع بين أختين، مؤكدًا أنها قصة مختلقة لا سند لها، ويبيّن أن مثل هذه الروايات تُستغل للطعن في رموز التصوف وتشويه سمعة أسرة الصادقاب الركابية الأشراف. ويؤكد الكاتب أن سيرة الشيخ الهميّم المعروفة بالزهد والتقوى تناقض هذه التهمة، كما يوضح من خلال تتبع الأنساب أن الفتاة المعنية كانت ربيبة للشيخ بانقا وليست ابنته، مما ينفي أي شبهة شرعية، إضافة إلى عدم ثبوت وجود بنات للشيخ بانقا بالأسماء المذكورة في الرواية، ليخلص إلى أن القصة ملفقة هدفها إثارة الفتنة والنيل من مكانة هذا البيت الصوفي العريق.

نقتبس مما كتبه التالي: «قد وقفت على مسألة من المسائل بكتاب طبقّات ود ضيّف الله تتعلق ببيت من أكبر وأعرق بيوتات التصوف في السودان السادة الصادقاب الركابية الأشراف « و التي كثيرا ما يثيرها دعاة السلفية الحشوية المجسمة الوهابية من خلال مناظراتهم ومحاضراتهم ودروسهم الخاصة ألا وهي « جمع سيدي الشيخ محمّد الهميّم ود عبد الصادق بأختين فهي قصة مكذوبة لا تصح أختلقها الأفاكون « رضي الله تعالى عنه بغرض تشويش وتمويه للرأي العام وتضليل للبسطاء من الناس وخلق فتنة داخل اعرق البيوتات السودانية الصوفيّةالتي كانت

ولا تزال لها القدح المعلى في نشر العلم والأخلاق والسلوك ولذا لنا وقفة مع هذه الحادثة حتى يحق الحق ويزهق الباطل فبالله التوفيق.

نقول : إن الحديث عن سيدي الشيخ محمّد الهميّم ود عبد الصادق يستلزم الوقوف طويلاً أمام أمر متعلق بسيرته، لأن الطريق القادري في بالسودان، إن لم يكن التصوف في السودان كله فهو رأس الرمح بعد الشيخ تاج الدين البهاري. لذا فإن البعض ينظر إلى العظماء من خلال عثرات مفتراة عليهم ليشوهوا بها عظيم حياتهم والتسليم لرواية خاطئة مدسوسة مع وجود الدلائل والمؤشرات على عدم صحتها فهذا يوجب الوقوف والإعتزار .

فكل ما قيل عن سيدي الشيخ محمّد الهميّم يدعوا العقل والإنصاف أن نراجعه بجوانبه المختلفة نحتاج فيه إلى نظرة ثاقبة بعيدة عن الهوى والأغراض المذمومة ونحن أهل هذا البيت نعلم فقد كان جدنا رضي الله عنه زاهدا ورعا تقيا وأن التقاضي في ذاك العهد كان تابعا لنظام الحسبة في العصور الإسلامية الزاهرة فكان نظاما مكتملا ومميزا ، وإنه من أهم مساندي القاضي الذين أثبتهم الكتاب هو الشيخ فرح الذي تتلمذ على يد الشيخ

سليمان الطوالي والشيخ سليمان تلميذا للشيخ محمّد الهميّم[81] .

وسيدي الشيخ الهميّم تزوج بنت أبو ندودة ملك رفاعة وزوجة أبو ندودة تزوجها فيما بعد الشيخ بانقا وأصبحت البنت التي أنجبتها من أبو ندودة و كانت معها ربيبة للشيخ بانقا وليست بنتا له وبالتالي كانت تحل لسيدي محمّد الهميّم بل وحتى أبناء الشيخ بانقا كانت تحل لهم . وزوجاته سيدي الشيخ محمّد الهميّم كالأتي الأولي من الدويحية فأنجبت له الشيخ علي النيل وهو الإبن الأكبر والشيخ حمدالحار والشيخ نورالدين أبوشملة والشيخ عبدالصادق الذي توفي في حياة والده وهوجد الشيخ علي ودشريف وكذلك أنجبت له الشيخ محمّدالبنيبري ومن زوجاته أيضا حليمة بنت الملكة وهي من عطبرة فأنجب منها الشيخ الصافي ومكة وهي والدة الشيخ محمّد مدني السني وجاء في سيرة اليعقوباب في نفس الكتاب أن الشيخ بانقا الضرير له بنتين فقط هما « بتول الغبشة « وزوجها « حماد بن عبد الله « المعروف بحماد الخفي وأنجب منها الشيخ « هجو « الملقب ب « ابو قرن « والبنت الأخرى هي السيدة زينب ولم يرد في تاريخ الأسرة بنتين بهذا الإسم « أم كلثوم و خادم الله « فالشيخ بانقا ليس له بنتان بهذا الإسم وأيضا في اسرتنا الصادقاب الأشراف

81- عبدالجليل عبدالله صالح. المنهج الصوفي في السودان: النشأة والتطور والتحديات. https://www.amazon.com/dp/B09WM2C4PB

لم يكن جدنا متزوجا ببنات يحملان هذا الإسم ولم نجد لهما نسبا عندنا فأهل مكة أدرى بشعابها.

فبإنتفاء ثبوت بنتان للشيخ بانقا بهذا الإسم إنما يدل على أن هذه القصة كذب وزور وبهتان الغرض منها اسقاط اكبر بيت للعلم والدعوة إلى الله ومما نعرفه ان القاضي دشين قد زار سيدي محمّد الهميّم « بالنادرة « والمعروفة الأن « بالمندرة « وقبره معروفا فيها و تزوج بنته « مكة « وأنجب منها الشيخ محمّد مدني السني المشهور بمدينة ود مدني. و صلى الله وسلم و بارك على سيدنا محمّد و على آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً[82]

الطعن في مجموع علماء السودان، إنهم لم يحركوا ساكناً، وتركوا الأمر حتى يقع القاضي على الشيخ صدفة فيحاكمه، وهذا ما لا نعقله إذا علمنا أنهم كانوا يثورون ويقومون بسبب إمور لا ترقى لأطراف هذا الأمر مثل مناظرات الشيخ إدريس ود الأرباب والشريف عبد الوهاب في حكم الدخان، والتي وصل الأمر فيها إلى استفتاء علماء الأزهر. فهل كانوا بمثل هذا التهاون في المقاضاة التي يستباح فيها حمى الشرع. وبالطبع فانه لا يجرؤ أحد على القول بعدم معرفتهم لما كان حادثاً وإلا

82- المصدر نفسه

لعاكس الرواية نفسها إذ تم افتتاحها (بإنكار الناس)، والعكس الثابت من اشتهار أمر الشيخ الهميّم باعتباره خليفة الشيخ البهاري بل أن الشيخ عجيب المانجلك الذي عرف بالتقوى والصلاح واجتهاده وحزمه في أمور تطبيق الشريعة، كان يزور الشيخ متأدباً حافظاً لمكانته ولا تحسب أنه لم يكن يعلم شيئاً عن نسائه التسعين! أو زيجته من بنات الشيخ بانقا على الأقل ! ولا نحسب أيضا أنه علم ورفض حكم القاضي وتلك لعمرنا طعنة كبرى في قلب الجميع.

الطعن في شيخين جليلين هما الشيخ بانقا الضرير والشيخ القاضي يعقوب بن بانقا والأمر بالنسبة لهما أدهى من مجرد السكوت على مجاوزة للشريعة ، بل يتعداه إلى التطوع له بأدوات تجاوزها دون وازع من ضمير أو دافع من رجولة، فهذا يقدم بناته وهو غير جأهل بما يفعل، وذلك يرضى بهذه البلية وهو يحمل نفسه مؤهلات القاضي الذي عارضها فيما بعد! ألم يكن هو الأجدر بتفادي الأمر قبل وقوعه؟ وهو تلميذ الشيخ عبد الرحمن بن جابر وعامل الشيخ عجيب المانجلك على تحقيق العدالة.

وما يجعل الأمر غريباً أن شجرة أنساب الشيخ بانقا لم تعرف له بنتين بهذين الاسمين: خادم الله وكلتوم. إنما كانتا بنتاه هما (بتول

الغبشا) والدة الشيخ هجو ونقاوة والدة الشيخ عبد الرازق أبو قرون، كما لم نجد نسلاً للشيخ محمّد الهميّم من هاتين البنتين. قال الشريف حماد زين العابدين: إن الشيخ الهميّم لم يتزوج واحدة من بنات الشيخ بانقا ، فضلاً عن الجمع بين الأختين. وقال الشيخ موسى بن حماد: إن أحفاد بانقا معروفون لدى الجميع، إلا من ذكر ود ضيّف الله.

افتراض إن التصوف الإسلامي لم يكن ذا أثر عميق في نفسية الفرد السوداني، بتأميننا على جمل إشارات واردة في النص مثل (وأعلم أن الناس أنكرت عليه إنكاراً شديداً). وفي ترجمة القاضي دشين وردت الإشارة إلى أن القاضي دشين سمي بقاضي العدالة، لأن دعوة الشيخ الهميّم لم تزده إلا يقيناً، وهذا كله يعطي انطباعاً بوجود كثير من الخصوم للشيخ الهميّم أو على الأقل من ناصر القاضي لموقفه هذا. عكس ما عرف عن خلق السودانيين وقتها، خصوصاً لو صاحب قضية الشيخ الهميّم مثل هذه الخارقة فإنها ستكون له لا عليه، ولجزم الناس بان القاضي أصابته دعوة الشيخ وليس ثمة من يدعوه عادلاً بعدها. والمسألة أن دهشتنا ستتعاظم إن علمنا أن من أهم مساندي القاضي الذين أثبتهم الكتاب هو الشيخ فرح الذي

تتلمذ فيما بعد على سليمان الطوالي تلميذ الشيخ الهميّم[83].

وفي ختام مرافعتنا نقول إن هذه الرواية لا يستقيم لها عود على الإطلاق. فلا يعقل أن يكون الشيخ الهميّم في شبابه متديناً زاهداً ورعاً قدم نفسه للذبح من أجل الموت على الإيمان، وينقطع في خلوته سبع سنين للعبادة والذكر وخدمة المحتاجين، وتمتد به الأيام على هذا النهج ثم في عمر الشيخوخة والزهد القهري تثور رغبته في ملذات الحياة بصورة لا تعقل، ولا تخطر ببال فيتزوج من تسعين امرأة ولا يفرق في ذلك بين الحرام والحلال.

إن الدفاع عن الشيخ الهميّم ضرورة يقتضيها البحث العلمي لإسقاط الغث عن منهج التصوف وصالحي رجاله، وكل من يحاول الخوض في هذا الميدان وجب عليه التدقيق والوقوف على الحقائق من غير هوى أو انسياق وراء رغبات نفسية بعيدة عن الحق[84].

كتب الدكتور غازي صلاح الدين العتباني أن من حق أحفاد الشيخ الهميّم تكذيب ماجاء عن سيرة جدهم كما وردت في الطبقّاتإذ ليس هنالك مايعضد صحتها، من عباراته نقتبس

83- محمّد الحسن أبوقرون. القادريّة في السودان – مصدر سابق، ص400-.

84- المصدر نفسه، ص – 423.

التالي: «لقد احتج أحفاد الشيخ الهميّم على القصة وكذبوا ما ورد فيها من اتهامات للشيخ الهميّم، والحق معهم، لأنها مجرد قصة مروية في كتاب لم يقم ما يعضدها. لكن العبرة الحقيقية لأغراض فرضيتنا الراهنة هي أن هذه القصة قد رويت فعلاً في ذلك الزمن البعيد ولم تثر روايتها آنذاك الاعتراضات التي أثارتها الآن، فما تفسير ذلك؟ يلاحظ قبل محاولة تفسيرها أن هناك قصة شبيهة بها تروى في ترجمة صغيرون الشقلاوي الذي يزعم الكتاب أنه «كان يرد المطلقة ثلاثاً من غير زوج ينكحها»[85].

أبناء الشيخ الهميّم

رُزق الشيخ محمد الهميم عبدالصادق بعددٍ من الأبناء والبنات، نذكر من بينهم:

- الشيخ حمد أبو قرون بن الهميّم الشهير ب (حمد الحار)،
- الشيخ نور الدين،
- الشيخ الصافي،
- الشيخ مصطفى،

85- غازي صلاح الدين العتباني. صورة الزعيم الخارق ونفوذها على الحياة العامة السودانية قراءة سريالية لعالم ودضيّف الله، مصدر سابق.

- الشيخ دفع الله،
- والشيخ الطاهر،
- الشيخ مختار،
- الشيخ محمّد
- الشيخ شريف،
- وأم حقين بنت الهميّم.

آلت الخلافة بعد الشيخ علي النيل لابنه الجنيد، ثم الزين بن الجنيد، ثم تدلت إلى الهميّم والزين، والطائف، والزين، وعبد الرحمن، ومصطفى البكري، والطيب الضو، وأحمد البدوي بن الطيب أبو شام، وطه بن أحمد البدوي، وعلي بن طه (المرين)، ومحمّد بن طه، وأحمد بن طه والخليفة على بن محمّد[86].

86- موسوعة أهل الذكر في السودان – مصدر سابق.



قبة الشيخ محمد الهميم عبدالصادق

الباب الرابع

الشيخ بانقا الضرير

في هذه المساحة من البحث، وبعد أن قدّمنا عرضًا موجزًا لسيرة العارف بالله الشيخ محمّد الهميّم ود عبد الصادق، ننتقل إلى تقديم سيرة مختصرة للشيخ بانقا الضرير، وذلك اتساقًا مع موضوع الدراسة. ويأتي هذا في ضوء أن الجزء الأول من هذا المؤلَّف قد خُصِّص لبحث ما ورد في كتاب طبقّات محمّد نور ود ضيّف الله بشأنهما، ولا سيما ما فُسِّر على أنه ينطوي على مخالفات للشريعة، وهو ما لا نراه كذلك.

السائح موسى (أبودقن)

جاء موسى أبودقن من منطقة الزومة بالمديرية الشمالية إلى سنار في أوائل السلطنة الزرقاء في عهد الملك عبد الرحمن أو عبد القادر بن عمارة دونكس (هكذا ينطقون الاسم) واجتمع عليه الناس في الشرع يستفتونه ويتبركون بالسلام عليه، وعلم الملك بخبره واتصل به فوجده عالما متفقها في علوم القرآن والسنة ، وكان تقيا ورعا وزاهدا، فعرف الملك قدره وعلمه وفضله وسل فدعاه إلى دخول سنار لتستفيد الخاصة العامة من علمه الغزير فقال للمك (الوحدة خير من جليس السوء)

فعاهده الملك على الا يجالسه أبدا جليس سوء، فقبل ودخل سنار وراح يدرس علوم الدين ويفتي وفي سنار ازداد اكبار الملك للشيخ وازدادت رغبته في ابقائه في بلاطه ومن ثم فكر في تزويجه من والدته التي توفى عنها والده (ويقال أن اسمها مكة) وصارح الشيخ ووجهه بأن يشاور أمه ، ويقول أنها مانعت ثم تزوجت الشيخ موسى أبودقن وأنجبت له ابنه محمّد كريم الضيّف المعروف باسم بأن النقا الضرير[87].

نسبه

قال شيوخ اليعقوباب (لسونا) أن الشيخ موسى أبودقن هو ابن حمدان بن عبودي بن عبد الله بن كراف بن محمّد الحصين بن عابد الوثيق من سليطي بن محمّد الفضل بن قحطان بن سعد بن سمار بن سراريت كردم أبوالدميس بس بن قضاعة بن عبد الله مسروق بن أحمد اليماني بين ابراهيم الجعل ابن إدريس بن قيس بن كرب بن باطي بن هاطي (وفي رواية باطل وهاطل) ابن ذي الكلام بن سعد بن الفضل بن عبد الله الراسخ ترجمان القرآن ابن عباس بن عبد المطلب بن هاشم ونسبه معروب إلى عدنان وإسماعيل بن خليل الرحمن .

87- تحقيقات وكالة السودان للإنباء (سونا)، 1980.

وقد أوصى الشيخ موسى موسى بالا يدفن في سنار ، وبعد أن توفى وكفن وصلى عليه ووضع في « مركب « ورافق جثمانه ابنه بان النقا وقد رست المركب « في الكاسنجر وقد فن هناك وقبره ظاهر يزار [88].

الشيخ بانقا الضرير سيرة ذاتية

هو محمّد بن موسى الوثقي بن عَبودي بن عبد الله بن كراف بن محمّد الحصين بن عابد الوثيق، ينتهي نسبه إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنه. قال ود ضيّف الله: إن سندال العاج كبير الفونج أخوه لأمه، وقيل هي مكة والدة عمارة دُنقس وأنه أخوه ابن أمه، ووالده الشيخ موسى جاء سائحا في زمن الملك عمارة ونزل بمكان عرف فيه بكثرة التعبد وقراءة الق رآن، فلما سمع به الملك أرسل إليه وطلب منه أن يقوم بتدريس القرآن. ثم زوجه والدته التي توفي عنها والده، فولد الشيخ محمّد كريم الضيّف بانقا .

ونشأ بأن النقا كريم الضيّف في بيت المك ، وتعلم في مدارس الديوان الملكي ، ثم خدم اخوته ملوك الفونج ، وكان أميرا ذا رتبة عالية فى ديوان مملكة سنار ، وصار ينوب عن الملك في إدارة شئون السلطنة وعندما خصته العناية الإلهية واختارته (

88- المصدر نفسه.

السلوك طريق القوم) كان من السلطة في زوتها و من الرفاهية في نعيمها ومع ذلك خاض تجربة فريدة حينما اختار بمحض ارادته وكامل حريته أن يذبح من أن أجل أن يسلك طريق القوم طريق الله.

ولا شك في أنه سليل بيت ديني فكان غرساً طيباً إذ إنه حفظ القرآن يافعاً وتشرب أمور الحكم عن أمه وأخوانه وأدرك من العلم والصلاح شأوا بعيداً فاجتمع حوله الطلبة والمريدون كما أعطته أمه مخلفات أبيه الشيخ موسى أبو دقن من كتب دينية و مخطوطات وأدوات ، وترعرع في بيت الملك وتعلم في مدارس الديوان الملكي وكان أميراً ذا رتبة عالية في ديوان مملكة سنار بل إنه كان ينوب عن الملك في كثير من شؤون الدولة[89].

وعن حياة الشيخ بانقا الضرير في بلاط الملك تقول الباحثة أسماء موسى عبدالله مؤلفة كتاب تاريخ اليعقوباب بين القرنين السادس عشر والعشرين الصادر في العام 2017: « تجد أن هنالك اتفاقاً بين الباحثين والمؤرخين حول ملك الفونج الذي عاش في عهده الشيخ بان النقا الضرير والوظيفة التي كان يتولاها في البلاط الملكي للفونج. فود ضيّف الله يرى أنه كان

89- أسماء موسى عبدالله. تاريخ اليعقوباب بين القرنين السادس عشر والعشرين. شركة مطابع السودان للعملة، -2017 ص 4.

(عكازاً) . عند الملك نايل بن عمارة دونقس ويشترك معه في الرأي جون ريد الذي يوضح إنه كان عكازاً عند الملك نايل ود عبارة دو نفس أو يؤرخ له الفترة (١٥٤٤م) حتى ١٥٥٦م)، ومكمايكل الذي يؤكد أنه اشتغل في خدمة الملك أيضا أركل يتفق معهم في أنه كان عكازاً عند الملك نايل ود عماره دو نقس . كما تثبت وثيقة النيل الأزرق دار الوثائق القومية أمر خدمته عند الملك نايل[90]

كان بانقا أول من ولد وسكن في مدينة سنار من أسرته حيث ولد ونشأ في بلاط الملك وترعرع في كنف والديه وحفظ القرآن على والده وعلوم الدين وتربى تربية الصالحين من جهة أبيه ثم عمه وتربى تربية الملوك من جهة أخيه وإخوانه أخذ بانقا القسط الوافر من العلوم الدينية التي كانت منتشرة في القصر وتفقه في الدين وهو ما زال صغير السن وقد ظهرت نجابته ورجاحة عقله وفهمه وعلو همته وذكاؤه الشديد، أثرت فيه الحياة التي واكب باكورة نفحاتها من والده. فلما بلغ عمره سبعة أعوام أجله والده ووصاه وأخبره بمكان أهله وعرفه نسبه، ووصاه إذا وافته المنية أن لا بدقته في ستار، وعرفه بمكان دفئه عند أهله، وكتب له ورقة فيها نسبه قبل أن يتوفى[91] .

90- المصدر نفسه ص 6.

91- عبدالقادر حمدان الشيخ تاج الدين. مفتي السلطنة الشيخ بانقا أبويعقوب.

الملك يقيم وليمة لأخيه

لما كان بانقا أخاً للملك، كانت حياته كلها كحياة الملوك، وحينما بلغ عمره سنين الحنان أقام له أخوه مأدبة فاخرة، دعا لها كل أعيان البلد من الملوك وأقاربهم ووزراء السلطنة وقادة الجيش والنظار، والعمد أظهرت اهتمام أخيه به وعرفته الناس بأنه ابن الملوك وأهل السلطنة ..

عودته إلى سنار بعد وفاة والده

مكث بانقا مع عمه عبد المعروف وتعرف على أهله واستزاد علماً على علمه الغزير فلما قضى هنالك وقتاً عاد إلى بلاط الملك بسنار حيث أخوه وإخوانه وقد ظهرت عليه علامات الصلاح والخبرة والبركة. حققت حياة بانقا في صغره ما رأته أمه في المنام من قبل، وكان في صغره قبل أن يبلغ السبع سنين يفارق أبناء الملوك وينفرد لوحده ويعبر عن همته، وغايته التي شغلت نفسه فكان حيث يريد أن يلعب في طفولته تجده يكوم التراب قائلاً لنفسه هذا المسيد وهذه الخلوة وهذه النقابة وهذا قدح الضيّفان وديل الفقرة وديل الطلبة، فلما رأته أمه مداوماً على هذا وهي الواثقة من صلاحه قالت جد لي بأن نقاي

مطابع السودان للعملة – –2017 ص- 12.

فلما بلغ أشده وأكمل تعليمه بالديوان الملكي أصبح من أكابر علماء القصر بسنار[92].

بداية ظهور بانقا

بلغ عمره العشرين عاماً وقد أصبح بانقا فذاً في العلم والمعرفة والصلاح يقول معجوب برير كان بانقا قد أدرك من العلم والصلاح شاواً بعيداً واجتمع من حوليه الطلاب والمريدون، وقصده أرباب الحاجات من كل مكان، فسلمته أمه تخلفات أبيه الشيخ، من كتب دينية، ومخطوطات، وأدوات كما أهدته القدح والمسيحة، كذلك بسط الله عليه برزق واسع وجاه ديني ودنيوي عريض.

إدارة شؤون الحكم

عمل بانقا مع أخيه وأخواله في إدارة شؤون المملكة في مناصب شتى في الوظيفة التي تليق به كرجل دين، يقول معتز ميرغني إنه كان مفتي سلطنة الفونج وقيل إنه كان مشرفاً على أموال الزكاة وتوزيعها وذكر ود ضيّف الله أنه كان عكاراً عند الملك نايل ثالث ملوك الفونج، تزوج من بنت خالته، وكانت عقيمة، لم تنجب له حتى سلوكه الطريق القادري ولا حترامه لها ولأهلها، لم

92- المصدر نفسه، ص- 23.

يتزوج عليها حتى وافتها المنية بعد أن ناهز عمره السبعين، يقول محجوب كان كريماً مضيافاً باسط الكف بغير حدود آل على جسم أن يملا قدحه الكبير ذا الأخراص الأربعة باللقمة والملاح طعاماً للفقراء و الواردين حياض علمه وصلاحه وتقواه هذا إلى ما كان بذله مراً من الصدقات والأموال للمعسرين والمتعففين وهكذا احتل الشيخ بانقا سنام العلم والصلاح والكرم حتى لقبه الناس بكريم الضيّف (وكانت نار القرآن وإعداد الطعام لا تنطفئ في داره أبداً، فطبقت شهرته الآفاق وضرب بها المثل وشاع ذكرها (نار بانقا) لدوام اتقادها كرس الشيخ بانقا حياته الأمور الدين والناس والدولة.[93]

تنصيب الشيخ بانقا بسنار

أرسل الملك إلى الشيخ بانقا ليقيم معهم بسنار ويتولى المناصب التي تناسب فلم يقبل الرجوع إلى سنار لأن ذلك يحول بينه وبين العبادة والعزلة عن الناس ولكن قبل أن يباشر مسؤوليته من هنالك في مكانه الجديد عرض عليه الملك للحضور الى ستار لتكريمه ووداعه من قبل أهله ملوك سنار فذهب بانقا إلى سنار ووجد بها إخوانه الملوك وأقاموا له مهرجان تنصيب كبير تم تتويج الشيخ بانقا بنفس تتويج ملوك الدولة فاستبدل

93- المصدر نفسه، ص- 24

ثيابه و شد وسطه بحزام (الكرابة) ثم جلس على الككر، وأمسك بالحرية ويدل العقود الذهبية بسبح الذكر، واستبدل التاج الذهبي بالكوفية التي أهداها ل الشيخ تاج الدين وهي لا تزال موجودة في خلافة الشيخ موسى أبو قصة بالسيا ولبس الكركب وهو حذاء من الخشب، وحمل السيف ولكنه هذه المرة من الخشب دلالة على جهاد الأعداء من الشيطان والنفس والهوى، ونصبت أمامه الرايات التي كتب عليها (لا إله إلا الله محمّد رسول الله) وبدل دفوف الغناء بحلقات التوبة والذكر والمديح ثم غادر بعد تتويجه إلى الدوحة إلى الأبد والمعلوم عندنا أن جميع مشايخا اليعقوباب ينصبون خلفاءهم بهذه الطقوس والمنهج المذكور[94].

ألقاب الشيخ بانقا الضرير

الشيخ بان النقاء واسمه الأصلي محمّد واشتهر باسم بانقا كما اطلق عليه عدد من الألقاب تجملها في الأتي:

بان النقا

هو من أكثر الاسماء التي اشتهر وعرف بها ويعزى سبب هذا الاسم إلى عدة أسباب وهي :

94- المصدر نفسه ص 28.

السبب الأول: أن ودضيّف الله يقول إنه سمي بأن النقا لأن أمه قالت بأن نقاي أي صفاي ،رغم أنه لم يبين سبباً لمقولته، أما الرواية الشفاهية فتذهب إلى أن سبب تسميته بهذا الاسم هو ما كان من أمر ميلاده إذ أطلقته عليه أمه بعد ولادته مباشرة وذلك كما أسلفنا من أمر الرؤيا الصالحة التي تحققت لأمه بعد ولادته فصاح الناس غناوة بأن نقاؤها ومن ثم سار عليه اسم بان النقا، من هذه الرواية يرى أن هذا الاسم ألقته عليه أمه كناية عن نقائها وصفائها

الراي الثاني: يتضمن ما كان من قصة وفاة والده وتنفيذه لوصيته، إذ إنه ركب في المركب مع حيران أبيه وصارت بهم حتى وصلت كنور، ووجد الناس منتظرين والقبر جاهز، فهتفت أمه قائله «محمّد ولدي بان نقاؤه» ومن ثم خفف الاسم إلى بان النقا. ولعل أمه كانت تعني بمقولتها افتخاراً بأنه حقاً ابن الشيخ موسى أبو دقن لتنفيذه وصيته، ومن جانب ثاني من المحتمل أنها كانت تعني أنه قد اتضحت وتبينت قبلته هناك.[95]

السبب الثالث

أن هذا اللقب أطلق عليه بعد سلوكه طريق القوم أي الطريق

95- أسماء موسى عبدالله. تاريخ اليعقوباب بين القرنين السادس عشر والعشرين. شركة مطابع السودان للعملة، -2017 ص 7.

القادري على يد تاج الدين البهاري فبلغ الخبر الملك فقال الآن بان نقاؤه وقالت أمه الآن بان نقائي وقال الملك فيه كان في أربابية الناس وبقى في أربابية الله.

كريم الضيّف:

قال شاعر اليعقوباب مادحاً الشيخ بان النقا:

حبابو كريم الضيّف يا بحراً ما ليهو قيف

البلد باقي لنا خريف أب قوماً ما ها لفيف

اشتهر الشيخ بان النقا بالكرم والجود وعرف بالكرم المطلق إذ إن قدحه الذي تركه له والده عاش مائة وأربعاً وأربعين سنة وكان يمتلئ يومياً من الصباح حتى المساء، وقد أطلق عليه هذا الاسم كريم الضيّف وهو صغير لم يبلغ بعد الثلاثين من عمره فكرمه قاض بالأفاق. كما كانت نار القرآن ونار إعداد الطعام لا تنطفئ أبداً في داره وذاع صيتها حتى أصبحت مضرب المثل فيقال عنها «نار با نقا» لدوام اتقادها.

وفي رواية ثانية أن كريم الضيّف تطلق على مقر ضريحه فكل من زاره فإنه بفضل الله ينال مراده كما أن كل متعبد يستمد منه

النفحات لذلك أطلق عليه كريم الضيّف[96]

من منطلق هاتين الروايتين يمكن الفهم أن لقبه بكريم الضيّف يحمل في جوهره معنيين.

1. كرم معنوي وروحي

2.و كرم مادي.

وقال شاعرهم فيه: كريم الضيّف أب بلداً خريف ما صيف.

أب يعقوب

الكنية بالابن تقليد عربي معروف ولعل دلالة تسميته «باب يعقوب» نسبة لابنه الشيخ يعقوب الذي انتسب إليه اليعقوباب وتسموا باسمه قال الشاعر فيه:

أب يعقوب الضارب خلاهو   جاب طرق الله بي د مو شراهو

ولدت الرحمان المولى أداهو   يشع النور فوق الولا هو

الضرير:

هذا اللقب امتزج مع كنيته بان النقا فاشتهر بـ بان النقا الضرير

96- أسماء موسى عبدالله. تاريخ اليعقوباب بين القرنين السادس عشر والعشرين.
المصدر نفسه، ص 7.

وسبب هذه التسميه يرجع إلى أن الشيخ بان النقا عمر وبلغ من الكبر عتياً حتى أضحى عمره مائة و عشرين سنة فأصيب بالعمى لأجل ذلك لقب بالضرير. من ذلك نتوصل إلى أن اسمه الأصلي محمّد ولقب بـ بان النقاء، كريم الضيّف، أب يعقوب الضرير.[97]

التجربة في أربجي

كان بانقا يسير في ركبه في بعض شئونه الأميرية كنائب (عكاز) للملك وعندما وصل (أربجي) وجد الناس متحلقين عند «قطيه»- بناء من القش والطين- فسأل عن الخبر، فقيل له أن تاج الدين البهاري جاء باذن لإرشاد الناس، وتسليكهم طريق القوم « بالذبح وان محمّد ود عبد الصادق قد دخل وإن البهاري قد ذبحه وسال دمه خارج القطية-و كان بان النقا في السابعة والستين ، ففكر : أن ود عبد الصادق «شاب صغير السن وقال : «أنا تورا كمل كراهو» وفكر بان النقا : لو أن الذبح هو ثمن الرشاد» وسلوك طريق القوم» فما أرخص الثمن وما أعظم الثواب .. وقال بان النقا: اخترت طريق ربى، ثم خلع الملابس الامارة واستبدلها بجة فقير « «مرقعة» ثم سلم آلة السلطة إلى ثقة ووجهه بالعودة الى سنار وأخبار الملك بخبره ، ثم اغتسل وتوضا وصلى ثم دخل القطية.

97- المصدر نفسه، ص 11.

ضبحو .. ضبحو

مشى با النقا بإيمان الصديقين وعزيمة الشهداء على إنه دم ود عبدالصادق وعندما دخل (القطية) وجد محمّد (الهميّم) يجلس سالما آمنا مطمئنا يصغي إلى شيخه بكل جوارحه. عرف باالنقا سر التجربة وفاز في الاختبار الصعب القاسي ، ونجح بامتياز و هكذا بايع شيخه البهاري وذبح الشيخ خروفا ثانيا سال دمه خارج (القطية) ، فاصح المتحلقون حوله (ضبحو .. ضبحو)

وأجاز الشيخ تلميذيه ، ثم خرج معهما من القطية فتدافع الناس اليه طالبين (سلوك طريق القوم) فاخبرهم باجازته لتلميذيه محمّد الهميّم ودعبد الصادق وبان النقا كريم الضيّف .. ووجه الناس أن يسلكوا عليهما طريق القوم. وقال الشيخ البهاري (هذان الرجلان يحييان البلدان)[98]

الذبح و الموت في اصطلاح الصوفيّة

ولما كان مفهوم الذبح في هذا السياق يُؤخذ في بُعده الرمزي والمعنوي، لا في مدلوله الحسي المباشر، كما يتضح من حيثيات البيعة الصوفيّةوما ارتبط بها من دلالات روحية وتربوية، فإنّ فهم هذا المفهوم يقتضي النظر إليه ضمن الإطار الفكري

98- تحقيقات وكالة السودان للإنباء (سونا). 1980، فاروق أحمد إبراهيم.

والتعبدي للتصوف الإسلامي. وتُعدّ هذه البيعة من أوائل البيعات الصوفيّةالمعروفة في السودان، وهي البيعة التي انعقدت بين الشيخ تاج الدين البهاري وتلاميذه إبان قيام دولة دولة الفونج، ويرجّح أن ذلك كان حوالي عام 1577م، الأمر الذي يمنحها أهمية تاريخية وروحية في مسار انتشار الطرق الصوفيّةفي السودان.

ومن هذا المنطلق، فإنّ الإشارة إلى "الذبح" المفضي إلى الموت لا ينبغي أن تُفهم على ظاهرها المادي، بل تُقرأ في ضوء الأدبيات الصوفيّةالتي كثيرًا ما استخدمت مفاهيم الفناء، وموت النفس، والتجرد من الشهوات، بوصفها رموزًا للانقطاع الكلي إلى الله، والتخلّي عن علائق الدنيا. وعليه، فقد رأيتُ ـ بعد التأمل في النصوص ومراجعة السياقات التاريخية والدلالات الصوفيّة أن أتناول في الصفحات التالية تفسير هذا المفهوم وبيان أبعاده الدينية والروحية، مع الاستناد إلى التراث الصوفي والمرويّات التاريخية التي تساعد في فهم المقصود الحقيقي من هذه التعابير الاصطلاحية، بعيدًا عن التفسيرات الحرفية التي قد تُفضي إلى إساءة الفهم أو الخلط في المقاصد.

فالموت في اصطلاح الصوفيّةهو: قمع هوى النفس، فإن حياتها به، ولا تميل إلى لذاتها وشهواتها ومقتضيات الطبيعة البدنية إلا

به، وإذا مالت إلى الجهة السفلية جذبت القلب الذي هو النفس الناطقة إلى مركزها، فيموت عن الحياة الحقيقية العلمية التي له بالجهل، فإذا ماتت النفس عن هواها بقمعه، انصرف القلب بالطبع والمحبة الأصلية إلى عالمه: عالم القدس والنور، والحياة الذاتية التي لا تقبل الموت أصلا. [الكاشانى: اصطلاحات الصوفيّةصد١٠٥]. فالموت قمع هوى النفس، فمن مات عن هواه فقد حيي بهداه. [الجرجاني: التعريفات صد ٢١١].

والصوفيّةيستخدمون كلمة (قوامع) للتعبير عن كل ما يقمع الإنسان عن مقتضيات الطبع والنفس والهوى عنها، وهي الأمداد الأسمائية والتأييدات الإلهية لأهل العناية في السير إلى الله والتوجه نحوه. (راجع، التعريفات صد ١٥٩)

والهوى: هو ميل النفس إلى مقتضيات الطبع والإعراض عن الجهة العلوية بالتوجه إلى الجهة السفلية. (اصطلاحات الصوفيّةصد ٦٨)[99]

يُعدّ مفهوم "ذبح النفس" عند المتصوّفة من المصطلحات الرمزية العميقة، ولا يُقصد به المعنى الحرفي، بل هو تعبير عن مجاهدة النفس الأمّارة بالسوء وقهر شهواتها حتى تخضع لإرادة الله. وهو قريب من مفاهيم مثل الفناء والتزكية والموت المعنوي.

99- https://almuada.4umer.com/t4932-topic

يرى الصوفيّةأن النفس بطبيعتها تميل إلى الهوى، ولذلك يجب "ذبحها" أي: كسر شهواتها (الطعام، الجاه، المال...)

مخالفة رغباتها

تعويدها على الطاعة والزهد

تهذيبها حتى ترتقي من "النفس الأمّارة" إلى "النفس المطمئنة". وقد عبّر بعضهم عن ذلك بقولهم: "موتوا قبل أن تموتوا"، أي موتوا عن أهوائكم لا عن أجسادكم.

يقوم التفسير الإشاري عند الصوفيّةعلى الجمع بين ظاهر النص القرآني وباطنه، بحيث لا يُلغى المعنى التاريخي أو اللغوي، بل يُستثمر في توجيه السلوك الروحي. وفي هذا الإطار، تُفهم الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ ضمن سياقها الظاهر المرتبط بقصة بني إسرائيل، وفي الوقت نفسه تُقرأ قراءة رمزية تشير إلى مجاهدة النفس وتزكيتها. فالنص، في نظرهم، يحمل دلالة تربوية مستمرة تتجاوز الحدث التاريخي إلى خطاب الإنسان في كل زمان.

ومن حيث المعنى الإشاري، يذهب عدد من أعلام التصوف إلى أن "البقرة" ترمز إلى النفس الحيوانية في الإنسان، أي النفس التي تميل إلى الشهوات والتعلّق بالدنيا. وعليه، فإن الأمر

الإلهي بالذبح يُفهم بوصفه أمرًا بـ"ذبح النفس"؛ أي قهرها ومخالفة أهوائها، لا قتلها بالمعنى الحسي. وهذا المعنى يتسق مع أدبيات السلوك الصوفي التي تؤكد على المجاهدة والرياضة الروحية باعتبارهما طريقًا للترقي من النفس الأمّارة إلى النفس المطمئنة.

وقد أشار أبو عبد الرحمن السلمي[100] في حقائق التفسير إلى هذا البعد الرمزي، حيث يُفهم الذبح على أنه إشارة إلى التخلص من الصفات الذميمة وقطع علائق النفس. كما نجد عند عبد الكريم القشيري في لطائف الإشارات تأكيدًا على أن المقصود إشاريًا هو تصفية القلب من التعلّقات الدنيوية، وأن التردد الذي أبداه بنو إسرائيل في تنفيذ الأمر يعكس – في القراءة الباطنية – مقاومة النفس لعملية التزكية. وفي سياق قريب، يربط ابن عربي هذا النوع من الإشارات بمقام الفناء عن إرادة النفس والبقاء بالله، وهو من أعلى مقامات السلوك عند الصوفية.

كما أن تفاصيل القصة نفسها تحمل دلالات رمزية في هذا المنظور؛ فالتشدد في وصف البقرة وتكرار السؤال عنها يُفهم

100- أبو عبد الرحمن السلمي (محمّد بن الحسين بن محمّد بن موسى الأزدي النيسابوري، 325–412 هـ / 936–1021 م) كان مفسراً صوفياً ومؤرخاً للتصوف الإسلامي من نيسابور. عُرف بتأليفه في الزهد والروحانيات، ويُعد من أبرز من وثّق تاريخ الحركة الصوفيّة في القرون الأولى.

بوصفه تعبيرًا عن صعوبة إخضاع النفس، وأن مجاهدتها تحتاج إلى دقة وصبر واستيفاء شروط كثيرة. أما التردد في الامتثال، فيُشير إلى طبيعة النفس التي تميل إلى المراوغة والتأجيل حين تُدعى إلى مخالفة هواها، وهو ما يجعل "الذبح" عملية مستمرة من التهذيب لا فعلًا لحظيًا.

وخلاصة القول أن هذا التفسير الإشاري لا ينفي المعنى الظاهر للآية، بل يضيّف إليه بُعدًا تربويًا عميقًا، يجعل من القصة القرآنية نموذجًا دائمًا لصراع الإنسان مع نفسه. فالآية، في هذا الفهم، ليست مجرد خبر عن بني إسرائيل، بل هي توجيه لكل سالك إلى الله بأن "يذبح بقرته" أي نفسه الشهوانية، حتى يتحقق له صفاء القلب وكمال العبودية، كما تقرره كتب التصوف الكلاسيكية مثل لطائف الإشارات وحقائق التفسير.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ [البقرة: 67]، إشارة إلى ذبح بقرة النفس البهيمية، فإن في ذبحها حياة القلب الروحاني، وهذا هو الجهاد الأكبر الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يشير إليه بقوله: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، ويقوله للمجاهد نفسه، وقوله صلى الله عليه وسلم: « موتوا قبل أن تموتوا» ، أيضا إشارة إلى هذا المعنى[101].

101- تفسير التأويلات النجمية في التفسير الإشاري الصوفي/ الإمام أحمد بن عمر

{وإذْ قـال موسـى لِقومِـه إن الله يَأمركـم أنْ تذبحـوا بَقـرةً} هـي النفـس الحيوانيـة، وذبحهـا قمـع هواهـا الـذي هـو حياتهـا ومنعهـا عـن أفعالهـا الخاصـة بهـا بشـفرة سـكين الرياضـة[102].

وقد أجمع الصوفيّةعلى أن الروح مبدأ الحياة، وأن النفس مبدأ الشهوات، والقلب مركز المعرفة، والسر مركز المشاهدة أو الشهود، أو كما يقال أحيانا: النفس مبدأ الشهوات والأفعال المذمومة، والروح مبدأ الحياة والأفعال المحمودة، والعقل محل العلم، والقلب محل المعرفة والمحبة أصالة، ولكنه إن مال إلى النفس اتصف بصفاتها، وإن مال إلى الروح اتصف بصفاتها، فهو متقلب بينهما. (د/ أبو العلا عفيفي: الملامتية والصوفيّةوأهل الفتوة صـ ٥٠)

ولقد نقل الصوفيّةالنفس من المعنى الواسع الشامل للفجور والتقوى إلى المعنى المحدود في الأمارة بالسّوء، وأطلقوا على الصفات المذمومة في الإنسان لفظة النفس من باب إطلاق العام على الخاص. (د/ عبد الله الشاذلي: التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة، المجلد الثالث، صـ١٢٤)

(ت618 هـ)

102- ابـن عربـي. تفسـير القـرآن. https://www.greattafsirs.com/Tafsir_Library.aspx?QuranAyat_Home=1&MadhabNo=3&TafsirNo=33&SoraNo=2&AyahNo=68&LanguageID=1

وقد ذكر الإمام الغزالي: أن النفس مشترك بين عدة معان.

لكن الاستعمال الغالب على أهل التصوف أنه يراد بالنفس المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان، لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان، فيقولون: لابد من مجاهدة النفس وكسرها (الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين جـ٣ صـ٤).

والمنهج الصوفي في قمع هوى النفس يبدأ أولا بأن يجتهد الصوفي في مراعاة نفسه، ومعرفة أخلاقها؛ فإنها الأمَّارة بالسوء، ولا يغفل عنها وإن تناهى في المعرفة، فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان مراعيا لها، ومستعيذا بالله من شرها، وكان على بن أبى طالب t يقول: (ما أنا ونفسى إلا كراعى غنم، كلما ضمها من جانب انتشرت من جانب).

وقال أبو بكر الوراق النفس مرائية على جميع الأحوال، منافقة في أكثر الأحوال، مشركة في بعض الأحوال. (طبقّات الصوفيّةصـ٥٢)

وقال الواسطي: النفس صنم، والنظر إليها شرك، والنظر فيها عبادة. (طبقّات الصوفيّةصـ٧٢)

وقيل: مثلها في إبداء الحسن وإخفاء القبيح مثل الجمرة، لونها

حسن وإنها لتحرق، وإن عوقبت تشوفت التوبة، وتمنت الأوبة، وإن عوفيت ركبت هواها وأعرضت، قال الله تعالى: **{وَإذا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ}** [فصلت: ٥١]

وقيل: مثل النفس مثل ماء واقف صاف، إن حركته تبين ما تحته من الحمأة والنتن. (أبو النجيب ضياء الدين السهروردى: آداب المريدين صـ٥٩، ٦٠)

وبعد أن يعرف النفس يؤدبها بالرياضات، ولها صفتان: انهماك في الشهوات، وامتناع عن الطاعات، فيروضها بالمجاهدات، وهي فطم النفس عن مألوفاتها، وحملها على خلاف أهويتها، ومنعها من الشهوات، ويأخذها بالمكابدات، وتجرع المرارات، بكثرة الأوراد، واستدامة الصوم والنوافل من الصلوات، مع الندم على المخالفات، ونقلها عن قبيح العادات. (أبو النجيب ضياء الدين السهروردي: آداب المريدين صـ٥٢)

والمنهج الصوفي يعتمد أساسا على السعي إلى تزكية النفس، ومقاومة هواها وميلها، وكبح جماحها وأهوائها، ورغباتها الدنيوية، وهو إحدى الغايات الأولى للتصوف الإسلامي، ولذلك حينما سئل أبو الحسين النوري ما التصوف؟ فقال: ترك كل حظ للنفس. (طبقّات الصوفيّة صـ٣٨)

وسئل الجنيد عن التصوف، فقال: تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة واتباع الرسول -صلى الله عليه وسلم- في الشريعة. (أبو بكر محمّد الكلاباذى: التعرف لمذهب أهل التصوف صـ٣٤، ٣٥)

وهذا المنهج الصوفي يعبر عنه برياضة النفس ومجاهدتها، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: **{فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}** [النازعات: ٣٧- ٤١]

وقوله سبحانه: **{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ }** [العنكبوت: ٦٩].

والصورة المثلى لمجاهدة النفس لدى الصوفيّةتكون بقمع النفس، وبموت هواها، وكبح جماحها، ولذلك يذكر السهروردي من مقامات وأحوال السالكين: مقام من سلك طريق الرياضات والمكابدات وقهر النفس في المخالفات، ويقول عنه: وهو أفضل الطرق **{أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ**

بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [القصص: ٥٤].

وهذه الدلالة الخاصة للموت في المصطلح الصوفي، ربما ترجع إلى وقت مبكر من تاريخ الزهاد والمتصوفة.

فها هو الربيع بن خيثم أحد التابعين الذين أخذوا عن عبد الله بن مسعود، وهو أحد ثمانية من التابعين الذين انتهى إليهم أمر الزهد، وكان عبد الله بن مسعود إذا رآه قال: مرحبا يا أبا يزيد، ويجلسه إلى جنبه، ويقول: لو رآك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأحبك، وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين. (أبو نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء جـ٢، صـ١٠٥، ١٠٦)

كان يقوم الليل عابدا متهجدا، وكانت أمه تناديه قائلة: يا بنى، يا ربيع ألا تنام ؟ فيقول يا أمه، من جن عليه الليل وهو يخاف البيات، حق عليه ألا ينام . فلما بلغ أشده ورأت ما يلقى من البكاء والسهر نادته فقالت: يا بنى لعلك قتلت قتيلا ؟ فقال نعم يا والدة، قد قتلت قتيلا. قالت: ومن هذا القتيل يا بنى حتى يتحمل على أهله فيعفون؟ والله لو يعلمون ما تلقى من البكاء والسهر بعد، لرحموك. فيقول: يا والدة هي نفسى.

وفي رواية: (قتلت قتيلا هي نفسي). (أبو نعيم الأصفهاني:

حلية الأولياء جـ٢، صـ١١٤). علل الربيع بكاءه وزهده وسهره لأمه بأنه قتل نفسه، وأقام لمن جاء بعده من الزهاد والمتصوفة صورة نموذجية للمجاهدة وكان أول من قال بها. (د/ كامل مصطفي الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع صـ٢٧٨). لقد وضع الربيع إذا في تاريخ المخبتين — ثم الصوفيّةمن بعده- فكرة قتل النفس. (د/ على سامى النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ٣ صـ٢٣٠)

ويؤصل الصوفيّة لهذا المعنى بالاستدلال على ذلك بقول الله تعالى: **{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}** [البقرة: ٥٤]، فمن تاب فقد قتل نفسه.

قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق -رضي الله عنه- الموت هو التوبة. (الكاشاني: اصطلاحات الصوفيّةصـ١٠٥)

وقد ذكر الإمام الألوسي في تفسير هذه الآية - عقب الحديث عن قصة بنى إسرائيل وعبادتهم للعجل، وأمر الله لهم بالتوبة بقتل أنفسهم — أن حظ العارف من هذه القصة أن يعرف هواه بمنزلة عجل بنى إسرائيل، فلا يتخذه إلها **{أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا}** [الفرقان: ٤٣]

وأن الله –سبحانه – قد خلق نفسه في أصل الفطرة مستعدة لقبول فيض الله تعالى والدين القويم، ومتهيئة لسلوك المنهج المستقيم، والترقي إلى جناب القدس وحضرة الأنس.... فمتى أخلدت النفس إلى الأرض، واتبعت هواها، وآثرت شهواتها على مولاها، أمرت بقتلها بكسر شهواتها، وقلع مشتهياتها ليصح لها البقاء بعد الفناء، والصحو بعد المحو، وليست التوبة الحقيقية سوى محو البشرية بإثبات الألوهية... وهذا صعب لا يتيسر إلا لخواص الحق، ورجال الصدق، وإليه الإشارة ب»موتوا» قبل أن تموتوا، وقيل: أول قدم في العبودية: إتلاف النفس وقتلها بترك الشهوات، وقطعها عن الملاذ. (الإمام الألوسى: روح المعانى حـ١ صـ٢٦١)

ويستدلون كذلك بقول الله تعالى: **{أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [الأنعام: ١٢٢]، يعنى ميتا بالجهل فأحييناه بالعلم. (اصطلاحات الصوفيّة صـ ١٠٦)

قال ابن عباس – رضى الله عنهما–: إن المراد بالميت: الكافر الضال، وبالإحياء الهداية، وبالنور: القرآن، وبالظلمات: الكفر والضلالة. (روح المعانى حـ٨ صـ١٨). ويستدلون كذلك أيضا

بأحاديث جهاد النفس وسنتحدث عنها عند الحديث عن أنواع الموت.

أنـواع المـوت

المصطلحات الخاصة بأنواع الموت لدى الصوفيّةأُثرت أول ما أُثرت عن حاتم الأصم. [انظر في ترجمته: طبقّات الصوفيّةصـ٢٢]. فهو أول من أطلقها حيث قال: من دخل في مذهبنا هذا فليجعل في نفسه أربع خصال من الموت: موت أبيض، وموت أسود، وموت أحمر، وموت أخضر.

- فالموت الأبيض: الجوع،
- والموت الأسود: احتمال أذى الناس،
- والموت الأحمر: مخالفة النفس،
- والموت الأخضر: طرح الرقاع بعضها على بعض.

[طبقّات الصوفيّةصـ٢٢،٢٣، حلية الأولياء جـ٨ صـ٧٨].

ونجد هذا التصنيف عند ابن عربي ولم يضف جديدا [د/ سعاد الحكيم: المعجم الصوفي صـ١٠٣٠]. حيث قال: «فإن لأهل الله أربع موتات، موت أبيض: هو الجوع، وموت أحمر: وهو مخالفة النفس في هواها، وموت أخضر: وهو طرح الرقاع في اللباس

بعض على بعض، وموت أسود: وهو تحمل أذى الخلق، بل مطلق الخلق». [ابن عربي: الفتوحات المكية جـ١ صـ٢٥٨].

وقال: سر الموت كرباته وكشف حسراته، فأبيضه: ألم حسى، وأحمره: ألم نفسى، وأسوده مرض عقلي، وأخضره مثل زهر النبات لما فيه من شتات. [ابن عربي: الفتوحات المكية جـ٢ صـ٥٢].

١- الموت الأبيض:

يعرف الصوفيّةالموت الأبيض بالجوع، ويعللون ذلك بأنه ينور الباطن، ويبيض وجه القلب، فإذا لم يشبع السالك أو إذا كان السالك ممن لا يعرف الشبع بل لا يزال جائعًا، مات بالموت الأبيض، فحينئذ تحيي فطنته، لأن البطنة تميت الفطنة، فمن ماتت بطنته حييت فطنته) [اصطلاحات الصوفيّةصـ١٠٦]

لذلك يقول ابن عربي:

الجوع موت أبيض وهو من أعلام الهدى

الجوع حلية أهل الله، وأعني بذلك جوع العبادة وهو الموت الأبيض. (الفتوحات المكية جـ٢ صـ١٨٧)

والجوع أحد أركان الطريق الصوفي الذي يتكون من أربعة أشياء:

الجوع، والعزلة (أو الخلوة) والسهر، وقلة الكلام (أو الصمت) . (الإمام عبد الوهاب الشعراني: الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفيّةجـ١ صـ٥٦)[103]

ثُمَّ اعْلَمْ أَن مخالفة النفس رأس العبادة وَقَدْ سئل المشايخ عَنِ الإِسْلام؟ فَقَالُوا: ذبح النفس بسيوف المخالفة.

واعلم أَن من نجمت طوارق نَفْسه أفلت شوارق أنسه، وَقَالَ ذو النون المصري: مفاتح العبادة الفكرة وعلامة الإصابة مخالفة النفس والهوى ومخالفتها ترك شهواتهما، وَقَالَ ابْن عَطَاء: النفس مجبولة عَلَى سوء الأدب والعبد مأمور بملازمة الأدب فالنفس تجري بطبعها فِي ميدان المخالفة والعبد يردها بجهده عَن سوء المطالبة فمن أطلق عنانها فَهُوَ شركيها معها فِي فسادها[104].

وقد عبّر الشيخ محمّد توم ود بانقا اليعقوبابي عن مراتب «الموت» في السلوك الصوفي تعبيرًا بليغًا في قصيدته الإرشادية، موجّهًا خطابه إلى السالكين طريق القوم، أولئك المنشدين للمعالي، السائرين في دروب الرجعى إلى الله. فجاءت أبياته بمثابة دليل تربوي يرشد المريد إلى ضرورة الفناء عن حظوظ النفس، والتخلّي عن علائق الدنيا، والتحلّي بأنوار الطاعة والإخلاص. وفي هذا

103- المصدر نفسه
104- https://shamela.ws/book/9953/269

السياق، لا يُفهم «الموت» بوصفه فناءً جسديًا، بل هو موتٌ معنويّ عن الهوى، وانقطاعٌ عن الأغراض، وولادةٌ جديدة في حضرة القرب الإلهي، حيث يحيا القلب بعد مواته، ويشرق بنور المعرفة بعد ظلمة الغفلة.

ومن خلال هذا الخطاب، يُبرز الشيخ أن السير إلى الله لا يتم إلا عبر هذه «الموتات» المتعاقبة: الجوع، مخالفة النفس، لبس الجبة، وتحمل أذى الناس، وهي مقامات يترقّى فيها السالك من مجاهدة النفس إلى شهود الحق. فتصير القصيدة نداءً صوفيًا عميقًا، يدعو إلى ذبح النفس وتطهير الباطن، حتى يبلغ المريد مقام الصفاء، ويتحقق له معنى العبودية الخالصة، وهو الغاية التي قصدها القوم في مسيرتهم الروحية.

ألا يا سالكا طـــــرق النجاة تأدب وأتبع وأسمع وصـــــاتي
وصلوا الرجـــــال بخالص النيات وســــــابقوا لله في الخـــــيرات
من بعد ما تابوا له وأستغفروا وتجنبــــــــــو الآثام والذلات
صدوا عن الدنيا وعـــــن لذاتها وتباعدوا عـــــن سائر الشبهات
وتضمروا بالصوم جاعوا بطونهم وطووا الليالي وكربوا الحزمـــــات
صاروا شناناً باليـــــات جسومهم والنوم منهم طـــــار بالسهوات
لبسوا الدلوق مـــــن زهدهم وأستوحشوا من غيره في الجبل والفلوات
أفنوا بجمع ثم غابوا عنهم بشهود متجل عظيـــــم صفات
وصلوا النعيم من بعد ما كشفت لهم حجب النفوس فنعم هم السادات
الكون يخدمهم جميعاً طائعاً ومن مـــــددهم يحيون للأموات
وبنظرة ينظـــــرون مريداً بالرضا يصل المقام في ســـــاعة اللحظات
يا مـــــن تريد أن تتبع آثارهم مـــــوت لنفسك أربع موتات
بالجوع ثم خلاف لنفسك ولباس جبة وتحمـــــــل للناس في الأذيات
فان سموم الموت يفسده البقاء بظهور فرد واحـــــد في الذات
فينـــــور قلبك شمس تتلألأ وتشرب لذيذاً صـــــافي الكاسات
فإن كنت ذا فهم وقلبك حاضر فعليـــــك بالأوراد في الخلوات
لا يستحقر الـــــورد إلا جاهل الـــــورد صاحبه يلي الحضرات
القوم ســـــــاروا سابقين بهمة وأنا القطيع من كثرة الغفلات
محمّد توم مذنب مقصـــــر راجي الكريم من فضله الرحمات
ثم صـــــلاة ربي علي النبي وآله وكذا السلام تحية كرات١٠٥

الشيخ بانقا في أربابية الله

وقيل أن الملك عندما عاد اليه ركب بان النقا كريم الضيّف وأخبر خبره قال (الآن بان نقاؤه) وقالت أمه (الآن بان نقائي) ، وقال الملك (كان في أربابية الناس وبقى في أربابية الله) ، والأربابية لقب السادة القيم من القوم من ملوك الفونج

105- عبدالجليل عبدالله صالح. الطريقة السمانية: المنهج- التاريخ والمستقبل. مطابع السودان للعملة، 2015.

والعنج .. ومنذ ذلك اليوم لم يدخل بان النقا سنار بل كان آل البيت السناري الحاكم يصلونه ويزورنه وبنية وأحفاده للسلام عليهم والتبرك بهم. وقد سكن بان النقا (الدوحة) ثم عمر في الوعر (تباخة) حيث أقام خلوته للتعبد وفيها دفن.

وقد تآخى بان النقا في الله مع محمّد الهموم وخصه باحترامه فكان يزوره في كل عام مرة ، وقد أديا سويا فريضة الحج في ذلك الزمان حيث كان السفر بالدواب .. ومن محبته له زاره الشيخ البهاري في الوعر وقضى معه فترة طويلة (قدمه) بأن النقا بعدها الى البحر الأحمر حيث سافر للحجاز.

وذات قصة البيعة الصوفيّة القادريّة يحكيها العميد معاش محجوب برير محمّد نور في كتاب الموسوم ب «قبسات من الفكر والتاريخ»: «ثم توضأ ودخل القطيع وبالداخل وجد الشيخ البهاري والشيخ محمّد ود عبد الصادق يتحادثان همسا وأمامهما كيش مذبوح وفي جانب من المكان خراف أخرى تنتظر ، ففهم الشيخ بانقا سر إمتحان الشيخ البهاري لقوة إيمان مريديه ورغبتهم في إتخاذ القادريّةطريقا إلى الله فسلك على يديه وبايعه ، فأمره الشيخ تاج الدين أن يذبح أحد الخراف فداء وصدقة ففعل وسالت دماء الخروف خارج القطيع فتصايح الناس من جديد ضيحو ... ضبحو..!!

وانطلق بعض الناس بالخير إلى أخوه الملك سندال العاج فقال في حكمة الملوك وثباتهم للنوازل :"بانقا أخوي مرق من أربابيتنا الزايلة ودخل أريابية الله الدائمة.[106]»



رحيل بانقا إلى الدوحة

كانت بنت خالته التى تزوج منها وسكن معها القصر قد لحقت بأخيه الملك سندال العاج ولم يبق في القصر إلا أقاربه

106-محجوب برير محمّد نور. قبس من التاريخ، مصدر سابق – ص 397

فاستأذن بانقا في الرحيل فأذن له الملك بشرط التواصل وعدم الانقطاع عنهم . فسكن الدوحة وأقام بها مسيداً واختل به بخلوته التي بلغت ١٢ سنة كذا لحقه من الرياضة التي تعرفه بريه المعبود وكونه هو العاب والسيد الله وهذا هو العبد المتأدب . معه، فنظر إلى ربه يعين لم يـ العبادة وهو منقطع إلى الله صياماً وقياماً فمضت هذه الاثنا عشر عاماً كأنها أيام قلاد وهو الهام في شهود الذات والذهال نفسه من عظمة المنجلي وهيبته حتى حضر بعد لحسن الأدب والاطمئنان إلى وعد ربه، والنظر بعين البصيرة والسمع بها فزال خير العقل، والجهل بالله. وهذا كله لما أحب شيخه من واقع حبه حبه انا الله والتفاني في خده وتنفيذ أوامر الطريق بالحد المطلوب، وصل إلى علم بالله استغنى به عمن سوا يخرج عن شرعه طرفة عين.[107]

دوحة أب يعقوب قبلة المريدين

بعد استقراره وعزلته بأرض الوعر هاجر إليه أتباعه ومريدوه في محل إذ قريته الدوحة فأصبحت قبلة للناس، من كل أنحاء البلد، وهاجر إليه العرب فا جماعة بالإرشاد واشتعلت نار القرآن الكريم، ونورها بنور العلم وهذها بالف مصلح شأن كل من جاوره من ناحية البلد وفي هذا المكان تم تكليفه بكن

107- عبدالقادر حمدان. مفتي السلطنة الشيخ بانقا، مصدر سابق.

تحميل المملكة ونشر العلم، فأصبحت دوختته كعبه معجوجة لأهل الحاجات العلم والقرآن وفيها زاره ملوك سنار وخواصها ومشايخ الطرق الصوفيّةوالعلماء وأيضا زاره فيها شيخه البهاري وأخوه الشيخ محمّد الهميّم وقضوا معه بها شهر أثم ذهبوا ثلاثتهم إلى الحج جميعاً. وبعد عودتها إلى السودان لم ينقطع الشيخ بانقا عن زيارة أخيه بالمندرة وفي إحدى المرات وهما خارجان من رفاعة في طريقهما إلى المندرة ومعهما الفقرا التقى بها سلمان الطوالي في الطريق يحمل قربة ماء ذاهباً إلى المراسة فخرج بينهما فقالا له أنت الفقرا فإنهم عطشى فسقاهم، فقال أحدهم للآخر ما بالك بهذا الرجل وقد أحسن إلينا فدعوا له بالإيمان وهداه الله وناب وأخذ الطريقة على الشيخ محمّد الهميّم وتأخي مع الشيخ بانقا وزاره بالدوحة وزار بانقا الحميم بدعوة تلميذه الشيخ سلمان الزغراد في وقت الصيف وكانت المياه في أزمة والخضار معدوماً، وكان الشيخ بانقا قد حضر بآلاف الخواص والمريدين من سنار فاطرب خاطر الشيخ الهميّم على تلميذه فأكرمهم الله بالغيث في الصيف ورزقهم بالخضار من حيث لا يحتسبون، ولا زال على هذه الزيارة حتى نهاية عمره.

أما الشيخ محمّد القديم فإنه ما جاء إلى سنار إلا وزاره في الدوحة وذهب معه إلى سنار، لأن ملوك الفونج يكرمون كل من حضر معه الشيخ بانقا ويقضون حاجته وإذا كانت في

شفاعة قبلوا شفاعته[108].

أبناء وبنات الشيخ بان النقا

كرس الشيخ بانقا حياته الأمور الدين والناس والدولة ، وتزوج إحدى بنات خالاته فعاش معها حتى جاوز الستين من عمره دون أن ينجب منها فلما قبضها الله إليه تزوج بعدها فتاة من العركيين والدها معلم للقرآن هو الفكي الناجي العركي ، وكانت هي نفسها حافظة تقية ذات جمال وخلق ، فلم يمض على زواجها بالشيخ بانقا وقت طويل حتى سماها الناس (أم الفقراء) كناية عن رعايتها واهتمامها بخدمة الطلاب والمريدين والأضياف ، هذا وقد طغت كنيتها – ام الفقراء – ولقبها من بعد أم يعقوب على إسمها فلم يعرف تحديدا ، وقد صحبها الشيخ بانقا في هجرته ورحيله من سنار إلى الوعر ، وفي الوعر أقام له ولأتباعه ومريديه قرية سماها (الدوحة) سرعان ما أصبحت قبلة للناس من كل مكان ، فلم يجد الشيخ متسعا من الوقت للوقوف بين يدي ربه وذكره وعبادته ، فكان يعتزل (الدوحة) أحيانا إلى مكان مجاور أطلق عليه الشيخ بانقا اسم (تباخه) وفيها دفن بعد وفاته وله ضريح بها يزار وفي قرية الدوحة أنجبت ام الفقراء للشيخ أبناءه يعقوب الذي ينتسب إليه اليعقوباب

108- المصدر نفسه، ص 30.

وهو الذي كني به أبوه فقيل له بانقا اب يعقوب) وقد ذاعت شهرة يعقوب بالعلم والتقوى والصلاح حتى بلغت كل ارجاء السودان .. أنجبت ام الفقراء للشيخ إبنه (عيسى) الذي سكن وذريته اب حجير) قريبا من المدينة عرب ، وأنجبت بدوي وبتول الغبشا والدة الشيخ هجو ابوقرن ابن الشريف حماد بن عبد الله وهو من الأشراف يتصل نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وأنجبت ام الفقراء أيضا زينب نقاوه والدة الشيخ عبد الرازق أبوقرون .هذه هي كل ذرية الشيخ بانقا ولم يثبت أن له ذرية أخرى ، وليس له – كما هو واضح مما تقدم – من البنات سوى اثنتين بتول الغبشا وزينب نقاوه ، ومن ذلك يتضح أن ما إدعاه ود ضيّف الله في طبقاته لا سند له من سيرة وتاريخ الشيخ بانقا اب يعقوب !![109]

حفظ التاريخ لنا أسماء أبناءه وبناته الذين أنجبهم في (الوعر) والذين سجلوا مآثرهم في وجــدان الناس ايمانا وتصديقا وأولهم يعقوب الذي به يكنى حيث يقولون « بانقا أب يعقوب « أو» أبو يعقوب» والذى إليه ينتسب اليعقوباب والهجواب وعيسى وذريته في أبي حجير قرب المدينة عرب، و بدوى وهو لم ينجب ذرية . وبتول الغيشا التي زوجها أبوها للشريف حماد بن عبد

109– محجوب برير محمّد نور. مصدر سابق، ص- 396.

الله المعروف بحماد (الخفي) وزينب نقاوة التي زوجها (لحواره) حاج إدريس الرفاعي .

أنني الشيخ بان النقا حياته مهتماً بأمور الدين والناس والدولة وتزوج إحدى بنات خالاته وعاش معها دون أن يرزقه الله منها بطفل، فتوفيت ابنة خالته وتزوج بعدها فتاة من العركيين والدها كان معلماً للقرآن، وهي نشأت في بيت دين وتقوى وحلق ولم يمض زواجها على بان النقا طويلاً حتى أطلق عليها الناس أم الفقراء دلاله على رعايتها واهتمامها بأمر الطلاب والمريدين والضيوف وخدمتهم . ولعلنا نشير هنا إلى تميزها بالكرم والجود مثل زوجها الشيخ بان النقاء وقد رافقته في رحيله إلى الوعر وهناك أنشأ له ولأتباعه قرية سماها تباخة وفي هذه القرية أنجبت له أم الفقراء ذرية من أبناء وبنات وهم:

الشيخ يعقوب:

الذي انتسب إليه اليعقوباب كما أنه كني به أبوه فيقال «أب يعقوب» وقد ذاعت شهرته بالعلم والتقوى والصلاح حتى بلغت كل أنحاء السودان وأورد ودضيّف الله ذكره قائلاً يعقوب ابن الشيخ بان النقا صاحب الكرامات ...... الخ)، كما له من الأبناء:

الشيخ عيسى: الذي ليس له ذرية معروفة وتذهب الرواية الشفاهية إلى أنه كان عقيم .[110]

وابنه بدوي: الذي توفي صغيراً وورد ذكره عند كل من جون ريد و صديق محمّد البادي .

وابنه التوم أبو قرن: الذي توفي صغيراً غير أن روايات اليعقوباب لم تذكره أو توضح عنه شيئاً ولكننا نجده في التسلسل الهرمي لعائلة اليعقوباب في وثيقة بدار الوثائق القومية.

وله من البنات اثنتان من بتول الغبشاء وزينب نقاوة، وقد تردد اسم بتول الغبشاء مرتين في كتاب الطبقّاتالأولى حين ذكرها ودضيّف الله قائلاً، ويكفي في ذلك تربيته لابنه يعقوب وبتول الغشاء ، والمرة الثانية في ترجمته للشيخ هجو أبو قرن حيث يقول «هجو بن بتول الغيشاء» ولم يورد ود ضيّف الله ذكر ابنته زينب نقاره وإنما جاء ذكرها عرضاً في ترجمته لابنها الشيخ عبد الرازق «أبو قرون» حيث ذكر

نسوان العرب مع العجم رطان   ما ولدت مثل أمك نقاوه بطان

110- أسماء عبدالله موسى. . تاريخ اليعقوباب بين القرنين السادس عشر والعشرين. مصدر سابق – ص 7.

ذراري الشيخ بانقا

ذرية زينب نقاوه: ابنها الشيخ عبد الرازق أبو قرون الذي ينسب إليه الرازقية في ود بانقا بالقرب من شندي.

ذرية بتول الغبشاء تفرع منها الهجواب في كل من عمارة الشيخ الثوم وعمارة الشيخ هجو، العزاز، حلة ودبانقا، أم قزازة، جلة هجو الأحمر.

ذرية الشيخ يعقوب وأبناؤه هم الشيخ حمدان والشيخ مرزوق والشيخ موسى أب قصة الذين تفرع منهم.

فرع الموساب نسبة إلى الشيخ موسى أب قصة وهم في السبيل، وكاو الجعافره وودكري.

فرع الحمداناب: نسبة إلى الشيخ حمدان وهم في كثرة داؤود.

فرع المرزوقاب: نسبة إلى الشيخ مرزوق في الحمرة والحجاج، تباخه، وود سعد.

وفرع الحجراب: نسبة إلى الشيخ حجر بن الشيخ هجو أب قرن الذي رباه وكفله الشيخ يعقوب. والشيخ عيسى الذي كان عقيماً، وكل من الثوم أب قرن ويدوي توفياً في عمر صغير[111].

111-. المصدر نفسه، ص.14

نشأ بانقا وتربى في حجر والدته مع إخوته ملوك القصر السناري ودرس القرآن على والده الشيخ موسى. وتلقى ما شاء له من فروض العلم. وبعد بلوغه سن الرشد وُلي وظيفة عكاز الملك، يبدو أن هذه الوظيفة كانت من الوظائف القيادية الهامة في القصر. يروى في لقائه بالشيخ البهاري إن الملك نائل أرسله إلى الشيخ عجيب، فلما جاء في غويبة أربجى اجتمع بالشيخ تاج الدين البهاري عند محمّد الهندي، وسلك عليه الطريق . و بعد خروجه من غرفة التسليك جَمع ما كان معه من أشياء تخص القصر، وأرسلها إلى الملك. فكان لهذا الفراق أثره الكبير على إخوته. فقد جرت هذه العبارة على لسان اخوته الملوك ولعله الملك نائل فقال: (كان في إربابية الناس، صار في إربابية الله (أي مع الله).

لقد كان السلوك الصوفي خطوة جديدة غيرت مجرى حياته من العيش في ظلال القصر وسط إخوته الملوك إلى حياة الزهد والعبادة، وهذه الحالة الجديدة جعلته ينزع ثياب الأمارة ويستبدلها بجبة الفقراء، ومن وقته لازم الشيخ البهاري وأستفاد منه معارف آداب الخدمة والذكر ودخول الخلوات، لقد كان في امس الحاجة إلى الآداب التي تصقل شخصه الذي كان يعيش في ظلال القصور، لقد كان للخدمة والملازمة أثرها ال كبير في حياته، فقد اكتسب بفضلها كثيرا من الآداب والمعارف

الصوفيّةالتي هيأته فيما بعد للمشيخة وتربية المريدين. وبعد سفر أستاذه البهاري ذهب إلى غابة الحمُر وبنى خلوة من البوص أو التمام، واختلى فيها للعبادة والذكر. وهذه الخلوة المتواضعة صارت فيما بعد منارا للعلم والقرآن والذكر، فاهتدى بمنارها كثير من الطلاب والمريدين، وارتفعت في تلك البقعة كلمة التهليل منذ أربعمائة سنة وأكثر، ولا تزال بقعة أبا يعقوب منارا للهداية والإرشاد. لقد اندثرت وفنيت القصور والملوك التي فر منها بانقا إلى مجالسة فقراء التصوف، وكتب هذا الفرار الى الله البقاء وخلود لآثار للفقير بانقا، فأحيا الطريق بخلاوى القرآن وصفوف الصلوات الخمس المفروضة، ودوي الأصقاع بكلمة لا إله إلا الله من المريدين في الوديان والجبال. مهما كان للسلطان والملوك من جبروت وصولةٍ في الحياة، إلا إن الأرض والبقاع تُحرس وتُحفظ بال ذكر وآداب الدين. وقد كانت المقارنة في هذا بين خلوة الشيخ بانقا المتواضعة وسط أشجار غابة الحمُر وقصر الممل كة السنارية الذي كان تتوافد لزيارته شيوخ القبائل والعشائر، قد فنيت القصور والملوك وخلدت خلوة الحمُر إن في ذلك لعبرة فأعتبروا يا أُولي الألباب بآيات الوحي القرآني ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦**﴾ (الأنبياء ١٠٥-١٠٦)

انتقل الشيخ الجليل بانقا إلى رحمة الله بعد عمر دام مائة عام وأكثر. أفني في طاعة الله تعالى وتوطيد مباني الدين وفضائله في الحياة، لقد ضمت ذلك الجسم الطاهر الزكي أرض الوعر والدوحة ولا تزال بقعته وآثاره معلم هداية إلى طريق الإسلام والخير. رحمات الله عليه وعلى إخوته في الطريق ما دامت السماوات والأرض. وحفظ من آلات التأييد في مرتبة المشيخة الصوفيّة الرايات وال ككرَ الكرسي وجُبة الشيخ تاج الدين وكوفيته. ويبدو أن إرث هذه المشيخة ما ذال يتناقل بين خلفائه.

شهادة اليعقوباب

قال الشريف حماد زين العابدين لسونا أن ودضيّف الله قد أخطا في ثلاثة اوجه فقد أخطا في النسب والتاريخ مع دعوته معرفتهما ذلك ان التاريخ لم يذكر، وما كان له أن يذكر ما لم يحدث- أن الشيخ محمّد الهميّم قد تزوج واحدة من بنات بانقا ولم يكن لبانقا بنات بهذين الاسمين بل إن ابنته هي بتول الغبشا وزين نقاوة وقد أورد وضيّف الله اسم بتول الغبشا عرضا في ترجمة بانقا حيث قال (ويكفي في ذلك تربيته لإبنه يعقوب وبتول بنته) وكذلك في ترجمة إبنهما هجو حيث ورد (هجو إبن بتول الغبشا)، كما أورد ودضيّف الله عرضا في مدح ولد آدم لشيخه عبد الرزاق أبوقرون حيث قال:

نسوان العرب ... مع العجم والرطان

ماولدت مثل امك ....نقاوة بطان

فالمادح يشير هنا إلى أن عبد الرازق أبوقرون هو إبن نقاوة، ولكن ودضيّف الله لم يذكر شئيا عن نقاوة، واوضح انه تعمد ذكرهن ليدس فريته إذ كيف تجأهل اسمي بتول ونقاوة وهن من هن، يعرفهن القاصي والداني، ومازال الناس في طول السودان وعرضه يسمون بهن بناتهم تيمنا، كيف ولا وهن قد انجبن هجو أبوقرن وعبدالرازق أبوقرون،وسيرتهن وسيرة إبنائهن معروفة لدى العامة والخاصة.

وقال حماد: وأخطا ودضيّف الله ثالثا في الحكم الشرعي إذ أن الحكم في هذه القضية ليس فسخ زواج محمّد الهميّم إذ ان زواج الاخت الثانية فوق الأولى باطل اصلا والحكم هو إقامة حد الزنا في الشيخ محمّد الهميّم.. واضاف الشيخ حماد قائلا: فلنترك الكلام من المكانة العلمية والدينية والأدبية للشيخين بانقا ومحمّد الهميّم مع ان ودضيّف الله نفسه يذكرهما في أرفع درجات المرشدين الصالحين. فهل خفيت عليهما عليهما حرمة هذا الجمع فكيف رضي بانقا أن يجمع إبنتيه في عصمة رجل واحد وكيف رضي الهميّم أن يجمع تحت عصمته بين اختين سبحانك ربي هذا بهتان عظيم.

في العدد السابع من مجلة القوم الصادرة في العام 1986م أجرى الصحفي المخضرم يحيي العوض تحقيقا في أمر هذه الحادثة – زواج الشيخ الهميّم من بنتي الشيخ بانقا– مع الشيخ الشريف حماد زين العابدين نقتبس منه التالي :

« إن عدم دقة المحقق وتناقضه تتضح عندما ذكر فى سيرة اليعقوباب أن للشيخ بان النقا الضرير بنتان فقط وذكر اسميهما، السيدة بتول الغبشاء واشار إلى اسم زوجها الشريف حماد ابن عبد الله الملقب بحماد الخفي، وهو من اشراف الحجاز وانجب منها الشيخ هجو الملقب بأبو قرن، والثانية زينب «نقأوة». ولم يرد فى تاريخ اليعقوباب أن للشيخ بان النقا الضرير بنتين باسمى كلتوم وخادم الله اللتين جمعهما الشيخ الجليل محمّد بن عبد الصادق زوجتين له كما زعم. ويضيّف الشيخ حماد ، إذا كان مثل هذا الأمر،الجمع بين الأختين لا يصدق ولا يمارسه عامة المسلمين، فكيف يرتكبه أهل العلم حفظة القرآن ومعلميه والذين مازالت مساجدهم عبر القرون، منارات علم وتقوى وهداية.؟ وعلينا أن نتساءل أيضا عن حكم الشرع فى مثل هذا الزواج، هل من المعقول ان يحكم القاضي بالفسخ فقط كما جاء فى الطبقّاتأم يحكم بحد الزنا كما هو معروف شرعا ؟. ويقول كل الشواهد تثبت أن الرواية مدسوسة من أعداء البيتين الكبيرين، اليعقوباب والصادقاب ، بل وهناك شكوك

بأن القاضي دشين عاصر عهد الشيخين الجليلين! والانكى من ذلك أن الرواية المنسوبة للشيخ ود ضيّف الله تقول أن الشيخ محمّد بن عبد الصادق الهميّم عندما سمع بحكم القاضي دشين دعا عليه « الله يفسخ جلدك» وبالفعل تفسخ جلد القاضي دشين.!! وهنا يكمن خطر الترويج لمثل هذه الروايات أو كما يطلق عليها العامة « الكرامات» التى لايقبلها الشرع ولا العقل !..»[112]

وفي مسيد تباخة التقت سونا بخليفته الشيخ موسى بن حمدان بن عبدالقادر أبوالحسنى إبن بانقا إبن موسى إبن بانقا إبن مضوي إبن محمّد زين إبن مرزوق بن يعقوب بن بانقا كريم الضيّف، وقد روى الشيخ موسى لسونا قصة جده بانقا التاريخية المشهورة عن سلوكه طريق القوم القادري وقال إن رواية اليعقوباب ترجح ميلاد بانقا إلى 796 هجرية 1375م ووفاته إلى 941هجرية 1520م وأنه قضى عمرا مديدا عاش أكثر من نصفه في عبادة الله وإرشاد السالكين واحياء نار القرآن وصالح الأعمال وأنه عندما هجر السلطان كان عمره 67 عأما ، وهجر بعدها سنار وسكن في (الوعر) حيث اقام اولا في الدوحة ثم

112- وكالة سونا للانباء (قسم التحقيقات) . أيام في مسيد ودبانقا. زيارة لخلفاء اليعقوباب، 7 أبريل 1980، ص27.

عمر تباخة وحفر بيرها حيث كانت خلوته التي دفن فيها[113].

وقال الشيخ موسى حمدان لسونا نفس القصة عن آباءه وبناته ونفى أن تكون له وصمة تزويج إبنتيه من رجل واحد، ونفى أن تكون اسماء بناته «كلتوم» و»خادم الله»، وقال إن أحفاد بانقا معروفين لدى الجميع الا من ذكر ودضيّف الله في «فريته» فهن من اختلاقه وافكه فما عرف بهن احد غيره.

لم يورد ودضيّف الله ترجمة لبنات بانقا وقد أورد اسم بتول عرضا في ترجمة إبنها (262 إلى 369) أبوقرن، هجو إبن البتول الغبشا، وأورد اسمها في ترجمة عبدالرافع (هجو إبن اخته بتول) وقد ذكر ودضيّف الله في طبقاته اسماء مئات النساء وشيئا من أخبارهن ولكن لم يذكر شيئا مما هو معوف لدى العامة الا عن الغبشا أو نقاوة.

يقول خلفاء اليعقوباب أن زينب - نقاوة - بنت بان النقا قد قرأت القرآن وعلومه على والدها، وتفقهت في علوم الدين على شقيقها يعقوب ، وأن الشيخ بانقا زوجها لاحد مريديه (حاج إدريس الرفاعي) وأنجبت منه عبدالرازق أبوقرون الذي نشأ وتربى وتلقى القرآن وعلوم الدين مع أبناء خاله مرزوق

113- المصدر نفسه، ص27.

وموسى «أب قصة» وحمدان وابن خالته هجو «أب قرن».

في الطبقّاتلم يورد ودضيّف الله ذكر زينب - نقاوة « بنت بان النقا، وإنما أورد سيرة أبنها عبد الرازق أبوقرون ولكن لم يقل ابن من من النساء هو ، بينما يذكر امهات الكثيرين وبناتهم ، فلم يذكر إلا أن بنات بأن النقا الاثنتين هن (كلتوم وخادم الله) .. وجاء ذكر نقاوة في مدح ولد آدم لشيخه عبد الرازق أبوقرون (ترجمة ١٨٨ ص 306) وذكر أفرادا من أسرتها حيث قال :-

رقت سافل وصعيد لي واسع الأوطان

بالخير العلي كل الأمور قطان

نسوان العرب مع العجم الرطان

ما ولدت مثل أمك نقاوة بطان

في مرزوق خصايلا معجبة وتمحين

مره تبقى أبو قرون وسره الخفى السكين

وفي الطبقّاتودضيّف الله في ترجمة عبدالرازق أبوقرون (188-304) مايالي: (ولد ببحر سمبتبار اصله رفاعي وقيل قدم من المشرق وسلك الطريق على الشيخ يعقوب إبن الشيخ بانقا، فلم انتهى

السلوك وبلغ مقامات الرجال أمره شيخه بالسفر إلى الأبواب.

في سياق العمل الميداني الذي أُنجز خلال عام 2013م بغرض جمع المادة العلمية لكتابي الأول حول الطريقة السمانية، والصادر باللغة الإنجليزية في صيف 2015م، قمت بزيارة ميدانية إلى حلة الشيخ بانقا. وخلال هذه الزيارة، التقيت بالخليفة الشيخ بانقا الشيخ زين العابدين (عليه من الله الرحمة والرضوان) وهو من خريجي جامعة الخرطوم (1970م)، وقد عمل مفتشًا زراعيًا بمشروع الجزيرة لسنوات عدّة.

وقد استفسرت منه بصورة مباشرة عن الرواية المتداولة بشأن الشيخ الهميّم وزواجه المزعوم من ابنتي الشيخ بانقا، فأكد لي، تأكيدًا قاطعًا، عدم صحة هذه الرواية ونفى وقوعها من أساسها. واستند في ذلك إلى معطيات نسبية وتاريخية دقيقة، موضحًا أن الشيخ بانقا الضرير لم يكن له من البنات سوى اثنتين: السيدة بتول الغبشا، المدفونة بمنطقة الدينيقيلة جنوب الجزيرة، والسيدة زينب نقاوة، التي يقع مرقدها في منطقة قرب شندي. ونفى بشكل صريح ما أُشيع عن وجود بنات أخريات مثل خادم الله أو كلتوم.

كما أشار إلى أن هذه الرواية لا تستقيم من الناحية الاجتماعية والتاريخية، إذ لا تتوافق مع الأعراف السائدة في ذلك السياق،

فضلًا عن مكانة الشيخ بانقا العلمية والدينية التي تجعل من غير المعقول نسبة مثل هذا التصرف إليه، خاصة ما يُروى عن تزويجه ابنتيه في وقت واحد لرجل واحد، وهو أمر يفتقر إلى السند الموثوق ويتعارض مع منظومة القيم والمعايير التي كانت تحكم تلك البيئة.

وعليه، يمكن النظر إلى هذه القصة بوصفها من الروايات الشفاهية غير الموثقة التي تسربت إلى بعض المدونات دون تمحيص كافٍ، الأمر الذي يستدعي إعادة قراءتها في ضوء النقد التاريخي والتحقيق الميداني[114] .

114- عبدالجليل عبدالله صالح. مقابلة مع الخليفة الراحل شيخ بانقا الشيخ زين العابدين، حلة الشيخ التوم، في أغسطس 2013م.



قبر أم الفقراء بتول الغبشا في قرية الدنيقيلة جنوب الجزيرة

الخطأ الأول في أسماء بنات الشيخ بأن النقا فهو لم يكن له بنات بهذه الأسماء.

والخطأ الثاني في ذكره بأن الشيخ محمّد الهميّم جمع بينهما في الزواج وذلك أمر لا يصدقه ولا يقبله العقل السليم الذي يراعي حرمة الدين والشرع في ذلك.

وتعليقنا أيضا أن ود ضيّف الله لم يراع حرمة الدين وحدود الشرع في حق هؤلاء الأولياء بالإضافة إلى المكانه الدينية والروحية التي يتبوأها الشيخ بان النقا والشيخ محمّد الهميّم مع أن ودضيّف الله يقر بصلاحهم وتقواهم ويضعهم في أرفع درجات الأولياء والمرشدين الصالحين[115].

الهميّم وبانقا والاخوة في الله

وبعد أن مكثا شهرا في رحاب الشيخ بانقا بالوعر ، سار ثلاثتهم لأداء فريضة الحج ، ثم عاد الشيخ بانقا ليزاول مهامه الدينية في الوعر حيث قرية الدوحة ، ثم يعتزل الناس وينقطع إلى الذكر والعبادة في (تباخة) التي قضى بها سنوات عمره الأخيرة بعد أن كف بصره ولقب ب (بانقا الضرير) فأمد الله له في العمر حتى ناهز المائة وأربعين عاما !!

ذانك هما محور الخطل الذي نقله ود ضيّف الله بغير تمحيص عن الشيخ باتقا الضرير والشيخ محمّد الهميّم اللذين حملا رأسيهما على الأكف ابتغاء المرضاة الله ، هذا الذي هجر زينة الحياة الدنيا ليعيش في الوعر ولينقطع لله . وذلك الذي شهد له بالهمة في الذكر والعبادة قطب صوفي ذو مقام رفيع ، فهل يصدق عقل ما رواه كاتب الطبقّات في حقهما من نزوع

-115

دنيوي لا يرعى حرمة الدين ولا حدود الشرع الحنيف ؟!!![116]

خلفاء الشيخ بانقا

تولى الخلافة من ابنائه الشيخ عيسى والشيخ يعقوب، وبعد وفاة الشيخ يعقوب آلت خلافته إلى ابنه الشيخ موسى أبو قصة، ثم أخوه الشيخ مرزوق بن يعقوب وبعد هذا الأخير انتقلت الخلافة إلى الشيخ هجو بن حماد الحمَراني سبط الشيخ بانقا الضرير ابن بتول الغبشة. قال الشيخ حسن الفاتح وفي نسل هجو المذكور تمركزت المشيخة وتوحدت قيادة الطريقة القادريّةفي اليعقوباب.

116- محجوب برير محمّد نور. مصدر سابق، ص- 399.

الباب الخامس

خاتمة الدراسة

يتناول النص إشكالية قراءة كتاب طبقّات ود ضيّف الله بوصفه مصدرًا تاريخيًا ومناقبيًا في آنٍ واحد، من خلال إعادة تقييم طبيعته المعرفية ومنهجه في نقل الروايات، مع التركيز على المرويّات المتعلقة بالشيخ محمّد الهميّم ود عبد الصادق والشيخ بانقا الضرير. وينطلق النص من فرضية مركزية مفادها أن الطبقّاتكتاب تراثي فولكلوري يؤرخ لجزء مهم من الحياة السودانية في العهد السناري، ويعكس البنية الاجتماعية والثقافية والروحية لذلك العصر، أكثر من كونه كتابًا للضبط الفقهي أو النقد الحديث للرواية.

ويرى النص أن الشيخ محمّد النور بن ضيّف الله جمع مادته من الرواية الشفاهية المتداولة بين المريدين والرواة وحفظة التراث، دون أن يُخضعها لمنهج الجرح والتعديل أو لمقاييس النقد الحديث، الأمر الذي يفسر وجود روايات تتعارض – في بعض جوانبها – مع مقتضيات النقل الصحيح أو الأحكام الشرعية والعقلية. غير أن هذا القصور المنهجي – بحسب النص – لا ينبغي أن يكون مبررًا لإدانة المؤلف أو التقليل من قيمة الكتاب، لأن غاية الطبقّاتلم تكن تأسيس خطاب فقهي أو عقدي، وإنما تسجيل صورة المجتمع السناري ومخياله الجمعي، بما فيه من اعتقادات

حول الكرامات والخوارق والأساطير المرتبطة بالأولياء.

وفي هذا السياق، يؤكد النص أن محاكمة طبقّات ود ضيّف الله بمعايير فقهية أو أيديولوجية معاصرة تُعدّ قراءة غير موضوعية، لأنها تنزع النص من سياقه التاريخي والاجتماعي والثقافي، وتحاول إعادة إنتاجه وفق تصورات لاحقة لا تنتمي إلى لحظته التاريخية. ومن ثمّ، فإن الكتاب ينبغي أن يُقرأ بوصفه مرآة للوعي الجمعي السوداني في عصر الفونج، وسجلًا لمعتقدات الناس وتصوراتهم، وليس بوصفه وثيقة قانونية أو مرجعًا فقهيًا ملزمًا.

ولعل من أبرز ما انتهت إليه الدراسة أن كثيرًا من الجدل الدائر حول الطبقّاتيرجع إلى سوء تقدير لطبيعة النص نفسه؛ إذ كثيرًا ما جرت قراءته بوصفه مرجعًا عقديًا أو سجلًا للوقائع اليقينية، بينما هو – في جوهره – نص مفتوح على الرمزي والأسطوري والشفاهي، تتجاور فيه الوقائع التاريخية مع التمثلات الشعبية للولاية والكرامة. ولذلك فإن إخضاعه لمحاكمات أيديولوجية أو عقدية معاصرة دون استحضار شروط إنتاجه التاريخي يمثل افتئاتًا على النص أكثر مما يمثل قراءة نقدية له.

كما يناقش النص الجدل الفكري حول الكتاب، مستعرضًا اتجاهين متقابلين: اتجاه يرى أن الطبقّاتأسهم في تكريس الوعي الغيبي والطائفي بسبب كثافة المرويّات الخارقة فيه، واتجاه آخر

ينظر إليه باعتباره نصًا تأسيسيًا في الوعي الثقافي السوداني، حفظ الذاكرة الجمعية، وسجّل تحولات المجتمع وأحلامه ومخاوفه وأساطيره. ويبرز في هذا السياق تقدير عدد من الباحثين لدور الكتاب في استقلال الكتابة عن السلطة السياسية الرسمية، إذ مثّل صوتًا شعبيًا مكتوبًا بلغة الناس ومن داخل عالمهم الاجتماعي والثقافي.

ويولي النص اهتمامًا خاصًا بقضية المرويّات المتعلقة بالشيخ محمّد الهميّم ود عبد الصادق والشيخ بانقا الضرير، خاصة رواية الجمع بين الأختين وما ترتب عليها من قصة القاضي دشين و«فسخ الجلد». ويذهب إلى أن هذه الروايات تعاني من إشكالات تاريخية وفقهية وأنسابية متعددة، من أبرزها عدم ثبوت أسماء البنات المنسوبات إلى الشيخ بانقا الضرير في الروايات الأسرية المتواترة، وغياب الأدلة النسبية التي تؤكد وجود مصاهرة بين البيتين، إضافة إلى التناقض بين مضمون الرواية والأحكام الشرعية القطعية المتعلقة بحرمة الجمع بين الأختين. كما يثير النص تساؤلات نقدية حول مدى معقولية قبول علماء ومتصوفة كبار بمثل هذه المخالفة الشرعية دون اعتراض.

وفي إطار التقييم الصوفي، يستند النص إلى أقوال عدد من أعلام التصوف، مثل السري السقطي، والجنيد، وأبي يزيد البسطامي،

وابن عربي، للتأكيد على أن التصوف الصحيح مقيد بالكتاب والسنة، وأن الكرامة لا تكون مبررًا لمخالفة الشريعة أو تجاوز حدودها. وبناءً على ذلك، يخلص النص إلى أن الروايات المنسوبة إلى الشيخ الهميّم، إذا خالفت أصول الشرع، لا يمكن قبولها بوصفها كرامات، وإنما تُفهم في سياق المرويّات الشعبية والسرديات التي تشكلت داخل بيئة اجتماعية تنافسية يغلب عليها التمجيد والمبالغة في تصوير أحوال الأولياء.

كما بيّنت الدراسة أن التصوف السوداني – في أصوله الكبرى – لم يكن خروجًا على الشريعة، وإنما تشكّل ضمن منظومة تربوية تُعلي من قيمة الالتزام بالكتاب والسنة، وهو ما أكدته نصوص أعلام التصوف أنفسهم، الذين جعلوا من التقيد بالشريعة شرطًا أصيلًا في صحة السلوك والولاية، ورفضوا أن تكون الكرامات ذريعة لتجاوز الأحكام الشرعية أو تعطيلها.

ويؤكد النص كذلك أن الامتداد التاريخي والروحي لبيتي الهميّم وبانقا الضرير، وما أنجباه من علماء ومصلحين ومشايخ تصوف عبر الأجيال، يمثل قرينة تاريخية وأخلاقية على سلامة أساسهما القيمي والديني، إذ يصعب – من منظور السنن الاجتماعية والمنطق الأخلاقي – أن تنتج بيئات مختلة أو منحرفة أثرًا إصلاحيًا مستمرًا عبر القرون. ومن هنا يخلص النص إلى

أن الروايات المثيرة للجدل ينبغي التعامل معها بحذر نقدي، بوصفها سرديات شعبية محتملة، لا حقائق تاريخية قطعية.

وفي المجمل، يدعو النص إلى قراءة متوازنة لكتاب طبقّاتود ضيّف الله، تقوم على الجمع بين الاعتراف بقيمته التاريخية والثقافية الكبرى، وبين إخضاع مروياته للفحص العلمي والنقدي، بما يتيح الحفاظ على مكانته بوصفه وثيقة مركزية في تاريخ السودان الثقافي والديني، دون التسليم المطلق بكل ما ورد فيه من أخبار ومرويات.

وعليه، فإن هذه الدراسة تدعو إلى منهج علمي متوازن في التعامل مع التراث الصوفي السوداني، يقوم على الجمع بين الاحترام الواجب للموروث، وإخضاعه في الوقت ذاته لأدوات النقد التاريخي والتحقيق العلمي، بعيدًا عن التوظيف الأيديولوجي أو المواقف المسبقة. فصون التراث لا يكون بتقديسه، كما لا يكون بهدمه، وإنما بفهمه وإعادة قراءته في ضوء شروطه التاريخية والاجتماعية والثقافية.

في ختام هذه الدراسة الموسومة بـ «تصحيح المرويّات في طبقّاتود ضيّف الله: دراسة توثيقية تحليلية في أخبار الشيخين الهميّم وبانقا الضرير»، يتبيّن أن كتاب طبقّات ود ضيّف الله يظل – رغم ما أُثير حوله من جدل – واحدًا من أهم المصادر

المؤسسة لدراسة التاريخ الديني والاجتماعي والثقافي في السودان خلال عصر السلطنة السنارية، لما يحويه من مادة ثرّة تُسهم في فهم بنية المجتمع السوداني، وأنماط تدينه، ومسارات تشكّل الوعي الصوفي وانتشاره.

غير أن أهمية الكتاب ومركزيته لا تعني التسليم المطلق بكل ما ورد فيه من مرويات وأخبار، ولا تبرّر التعامل معه بوصفه نصًا معصومًا من الخطأ أو مرجعًا نهائيًا في القضايا التاريخية والفقهية والعقدية؛ إذ أثبتت هذه الدراسة أن جانبًا من مادته قد تشكّل في بيئة يغلب عليها النقل الشفهي، وتداول الروايات المتوارثة، بما يجعل بعض الأخبار عرضة للإضافة أو التحوير أو سوء الفهم عبر الزمن. ومن ثمّ، فإن القراءة العلمية الرصينة لكتاب الطبقّاتتقتضي إخضاع رواياته لمناهج التحقيق التاريخي والنقد النصّي، مع مراعاة طبيعة الكتاب بوصفه كتاب مناقب وتراجم، لا مصنفًا فقهيًا أو وثيقة تاريخية بالمعنى الحديث الصارم.

وقد سعت هذه الدراسة – من خلال تتبع الروايات المتعلقة بالشيخين محمّد الهميّم بن عبد الصادق وبانقا الضرير – إلى فحص المرويّات الشائعة، ولا سيما ما يتصل بمسألة الجمع بين الأختين، عبر مراجعة الأسانيد، ومقارنة المصادر، واستحضار السياقات الاجتماعية والفقهية والتاريخية المحيطة بها. وانتهت

الدراسة إلى أن كثيرًا من الأحكام التي بُنيت على بعض المرويّات المتداولة تستوجب إعادة نظر، وأن التثبت من الأخبار لا يُعدّ انتقاصًا من مكانة الرموز التاريخية أو الروحية، بل هو مسلك علمي يروم تحرير الحقيقة وإعادة بناء الذاكرة التاريخية على أسس أكثر ضبطًا وموضوعية.

كما خلصت الدراسة إلى ضرورة التمييز بين مستويين في قراءة طبقّاتود ضيّف الله: أولهما مستوى النص بوصفه سجلًا للمخيال الاجتماعي والديني وتمثلات الناس للولاية والكرامة؛ وثانيهما مستوى الوقائع التاريخية التي تتطلب أدوات نقدية صارمة للتحقق من مدى صحتها. فليس كل ما يُروى يُسلّم به تاريخيًا، كما أن وجود الروايات العجائبية لا ينفي القيمة الوثائقية والثقافية للنص، بل يدعو إلى قراءته قراءة واعية تستوعب شروط إنتاجه وسياقه الحضاري.

وإذا كان هذا العمل قد ركّز على نموذجين بعينهما، فإن الحاجة ما تزال قائمة إلى دراسات علمية مماثلة تتناول بقية المرويّات الواردة في الطبقّات، تحقيقًا وتمحيصًا ومقارنةً بالمصادر المحلية والمخطوطات والروايات الأسرية، بما يسهم في بناء كتابة تاريخية سودانية أكثر توازنًا، تجمع بين احترام التراث وإعمال النقد العلمي.

وأخيرًا، فإن هذا العمل لا يدّعي تقديم كلمة نهائية في موضوع بالغ التعقيد والتشعب، وإنما يطمح إلى فتح أفق جديد للبحث في مرويات طبقّاتود ضيّف الله، وإثارة أسئلة علمية جديدة حول طبيعة النصوص التراثية السودانية، ومناهج قراءتها وتحقيقها، أملاً في أن تتواصل الجهود العلمية لإعادة دراسة هذا الإرث الكبير بما يليق بمكانته في تاريخ السودان الفكري والثقافي والروحي.وأخيرًا، فإن الغاية من هذا الكتاب لم تكن النيل من أحد، ولا التقليل من شأن الإرث الصوفي أو الرموز الدينية في السودان، وإنما الإسهام في ترسيخ ثقافة التحقيق والتثبت، والتمييز بين الرواية التاريخية والحقيقة التاريخية، إيمانًا بأن خدمة التراث لا تكون بتقديسه أو رفضه، وإنما بفهمه وتحقيقه وقراءته قراءة علمية منصفة تحفظ له قيمته، وتضعه في موضعه الصحيح من التاريخ.

المراجع والمصادر

1.أبوقرون، محمّد الحسن. الطريقة القادريّةفي السودان والدعوة إلى الله. الخرطوم، 1999م.

2. أبوشوك، أحمد إبراهيم. «كتاب الطبقّات: يوسف فضل وود ضيّف الله والرواة في دائرة الضوء». مقال منشور على موقع سودانيل، 06 مارس 2010م.

3. أحمد، الأمين الحاج محمّد. وقفات مع كتاب الطبقّات: طبقّاتود ضيّف الله. بيروت: مركز الصف الإلكتروني للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، 2000م.

4. الأزدي النيسابوري، محمّد بن الحسين بن محمّد بن موسى، أبو عبد الرحمن السلمي (325—412هـ/936—1021م). [يُذكر اسم الكتاب المعتمد في التوثيق].

5.إبراهيم علي، حيدر. «سنار.. تزييف التاريخ: احتفال بخمسمائة سنة من الركود». مقال منشور على موقع سودانيزأونلاين.

6.العتباني، غازي صلاح الدين. صورة الزعيم الخارق ونفوذها على الحياة العامة السودانية: قراءة سريالية لعالم ود ضيّف الله.

دراسة منشورة على موقع تأسيس.

7.العوض، يحي. «الطبقّات: براءة ود ضيّف الله ومسؤولية د. يوسف فضل!!». مقال منشور على موقع سودانيل.

8.دياب، سعيد مصطفى. «الجمع بين الأختين سبب للعداوة ونزع المحبة». مقال منشور على شبكة الألوكة.

9.السقاف، علوي بن عبدالقادر. الموسوعة الحديثية.

10.الشيخ، عبدالله. التصوف بين الدروشة والتثوير. 2018م.

11.الشيخ تاج الدين، عبدالقادر حمدان. مفتي السلطنة الشيخ بانقا أبويعقوب. الخرطوم: مطابع السودان للعملة، 2017م.

12.صالح، عبدالجليل عبدالله. الطريقة السمانية: المنهج، التاريخ والمستقبل. الخرطوم: مطابع السودان للعملة، 2015م.

13.صالح، عبدالجليل عبدالله. المنهج الصوفي في السودان: النشأة والتطور والتحديات.

14.صالح، عبدالجليل عبدالله. مقابلة مع الخليفة الراحل شيخ بانقا الشيخ زين العابدين، حلة الشيخ التوم، أغسطس 2013م.

15.عثمان، تاج السر. لمحات من تاريخ مملكة الفونج

الاجتماعي. الخرطوم: الطبعة الثالثة، 2025م.

16.عباس، آمال. «حكايتي مع كتاب الطبقّات». الراكوبة، 14 فبراير 2013م.

17.عبدالله، أسماء موسى. تاريخ اليعقوباب بين القرنين السادس عشر والعشرين. الخرطوم: شركة مطابع السودان للعملة، 2017م.

18.فرح، خالد محمّد. «المئوية الثانية لود ضيّف الله». مقال منشور على موقع سودانيل، 18 مايو 2009م.

19.محمّد الأمين، عمر. «وقفة مع بعض المرويّات الشفوية والسماعيات والحكايات المؤسسة للشخصية السودانية في كتاب الطبقّات». مقال منشور على موقع سودانيل.

20.محمّد جمال الدين. «طبقّات ود ضيّف الله وعلة التوثيق وأزمة الحضارة وتناقض الذات في تاريخ السودان الوسيط والحديث!». مقال منشور على موقع سودانيزاونلاين، 27 أكتوبر 2017م.

21.محمّد نور، محجوب برير. قبسات من الفكر والتاريخ. الخرطوم: مطابع السودان للعملة.

22.جمعية المعارف الإسلامية الثقافية. فقه العلاقات الزوجية.

بيروت: مركز نون للتأليف والترجمة، 2013م، ص 86.

23.موسوعة أهل الذكر في السودان. الخرطوم: مطابع السودان للعملة، 2004م.

24.وكالة السودان للأنباء (سونا)، قسم التحقيقات. «أيام في مسيد ود بانقا: زيارة لخلفاء اليعقوباب». 7 أبريل 1980م.

25.حمد، زهير عثمان. «كتاب طبقّاتود ضيّف الله: بين التراث الشفاهي ومعايير النقد الحديث». مقال منشور على صحيفة سودانيل.

26.بدوي بشير، سيف الإسلام. «مصادر تاريخ السودان ومؤرخيه: ود ضيّف الله والسلاوي والكردفاني نماذجاً». ورقة مقدمة ضمن ورشة عمل: إسهامات علماء السودان في كتابة التاريخ.

يمثّل هذا الكتاب «تصحيح المرويات في طبقات ود ضيف الله: دراسة توثيقية تحليلية في أخبار الشيخين الهميم وبانقا الضرير» قراءة نقدية معاصرة لأحد أهم النصوص التراثية في السودان. يسعى المؤلف إلى مراجعة الروايات الإشكالية الواردة في طبقات ود ضيف الله، مستندًا إلى منهج تاريخي وتحليلي يقوم على المقارنة بين المصادر، وفحص الأسانيد، وإعادة وضع الأخبار في سياقها الثقافي والديني الصحيح.

من خلال تناول سيرتي الشيخين محمد الهميم ود عبد الصادق وبانقا الضرير، يعيد الكتاب النظر في بعض المرويات المتداولة حول علاقتهما، مبيّنًا التداخل بين الرمزي والواقعي في السرد الصوفي السوداني، ومؤكدًا أن الطبقات نصّ تاريخي يعكس ثقافة عصر سلطنة الفونج (1505-1821م) أكثر من كونه وثيقة فقهية أو حكمية.

يجمع هذا العمل بين احترام الرموز الدينية والتاريخية وبين صرامة البحث العلمي، في محاولة لإعادة بناء الذاكرة الروحية والاجتماعية للسودان على أسس نقدية متوازنة، تسهم في فهم التراث الصوفي السوداني فهما أعمق وأدق.

دكتور عبدالجليل عبدالله صالح